مدخل لمعرفة الإسلام

بقلم

أ.د. يوسف القرضاوي

الباب الأول
الحاجة إلى الدين

معنى الدين:

قبل أن نتحدث عن الحاجة إلى الدين عامة، وإلى الإسلام خاصة، ينبغي لنا أن نبين المعنى المراد بكلمة (الدين).

ولا نريد أن نطيل الحديث في ذلك عند اللغويين وعند مؤرخي الأديان، وفلاسفة الملل والنحل، وندخل في الموضوع مباشرة.

وقد بحث ذلك شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم (الدين) ثم خرج بالتعريف التالي للدين، أي دين، صحيح أو فاسد، كتابي أو وثني.

قال رحمه الله :

الدين هو:"الاعتقاد بوجود ذات ــ أو ذوات ــ غيبية علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعنى الإنسان، اعتقاد من شأنه أن على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد" وبعبارة موجزة، هو "الإيمان بذات إلهية، جديرة بالطاعة والعبادة". هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين، أما إذا إليه من هو حقيقة خارجة فنقول: "هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها".

فهذا التعريف يشمل الدين من هو، ولو كان قائما على الشرك والوثنية. ذلك أن القرآن سماه دينا، كما في قوله تعالى: (لكم دينكم ولي دين)، وقوله:(ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه).

وقد عرف علماء الإسلام الدين بأنه: "وضع إلهي سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى ما فيه الصلاح في الحال والفلاح في المآل".

الأديان السماوية ووحدتها:

ومن المعروف للدارسين أن الأديان نوعان:

1- أديان سماوية أو كتابية، على معنى أن لها كتابا نزل من السماء، يحمل هداية الله للبشر، مثل(اليهودية) التي أنزل الله فيها كتابه(التوراة) على رسوله(موسى) عليه السلام. ومثل(النصرانية) التي أنزل الله فيها كتابه(الإنجيل) على رسوله المسيح(عيسى) عليه السلام. ومثل(الإسلام) الذي أنزل الله فيه(القرآن) على خاتم رسله وأنبيائه(محمد) عليه الصلاة والسلام.

وفرق ما بين الإسلام والأديان الكتابية الأخرى: أنه الله تعالى حفظ أصول الإسلام ومصادره بوصفه الرسالة الأخيرة للبشر، فلم يصبها تحريف ولا تبديل، في حين لم يحفظ مصادر الأديان الأخرى وكتبها المقدسة، فحرفت وبدلت، أو ضاعت.

2- وأديان وثنية أو وضعية، تنسب إلى الأرض لا السماء، وإلى البشر لا إلى الله مثل(البوذية) في الصين واليابان، و(الهندوسية) في الهند، و(المجوسية) في فارس قديما، وغيرها من الأديان في آسيا وأفريقيا. فهي إما من وضع البشر أساسا مثل البوذية، وإما أن يكون لها كتاب في الأصل ثم ضاع ولم يبق له أثر، كما في المجوسية.

والأصل أن الأديان السماوية واحدة في أصولها العقائدية، وإن اختلفت شرائعها باختلاف أزمنتها، وهذا ما بينه القرآن وأكده: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه). وقال تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا).

ومحمد خاتم الرسل بعث بالإسلام ــ دين الرسل جميعا ــ مصدقا لما بين يديه ــ أي ما تقدمه ــ من الأديان، ومؤكدا لما تضمنته كتبها من حقائق الدين، وقواعد السلوك، كما جاء القرآن مهيمنا على تلك الكتب، لما أصابها من تحريف لفظي أو معنوي لكلمات الله فيها، متمما لمكارم الأخلاق التي جاء بها رسل الله من قبل، حتى تبلغ غايتها بعد أن بلغت البشرية أشدها، واستكملت رشدها.

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق).

وسنبين في هذا الباب حاجة الإنسان ــ فردا ومجتمعا ــ إلى الدين بصفة عامة، وإلى الأديان الكتابية بصفة خاصة، وإلى الإسلام خاتمتها على وجه الأخص.

حاجة الإنسان إلى الدين:

إن حاجة الإنسان إلى الدين عامة، وإلى الإسلام خاصة، ليست حاجة ثانوية ولا هامشية، إنها حاجة أساسية أصيلة، تتصل بجوهر الحياة، وسرالوجود، وأعمق أعماق الإنسان.

وفى أقصى ما يمكن من الإيجاز ــ غير المخل ــ نبين هنا وجه الحاجة إلى الدين في حياة الإنسان:

*** حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى في الوجود:**

1- حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق ــ أول ما تنبثق ــ من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله، أي إلى معرفة الجواب عن الأسئلة التي شغلت بها فلسفات البشر ولم تقل فيها ما يشفي.

فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟! ومهما تشغله مطالب العيش عن هذا التساؤل، فإنه لا بدواقف يوما ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة:

(أ) يقول الإنسان في نفسه: من أين جئت وجاء هذا الكون العريض من حولي؟ هل وجدت وحدي أم هناك خالق أوجدني؟ ومن هو؟ وما صلتي به؟ وكذلك هذا العالم الكبير بأرضه وسمائه، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه، هل وجد وحده أم أوجده خالق مدبر؟.

(ب) ثم ماذا بعد هذه الحياة... وبعد الموت؟ إلى أين المسير بعد هذه الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضي؟ أتكون قصة الحياة مجرد" أرحام تدفع،

وأرض تبلع" ولا شيء بعد ذلك ؟ وكيف تستوي نهاية الأخيار الطاهرين الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الحق والخير، ونهاية الأشرار الملوثين الذين ضحوا بغيرهم في سبيل الهوى والشهوة ؟ أتختتم الحياة بالموت؟ . . أم هناك وراء الموت حياة يجزى فيها الذين أساءوا بما عملوا والذين أحسنوا بالحسنى؟

(ج) ثم لماذا وجد الإنسان؟ لماذا أعطى العقل والإرادة وتميز عن سائر الحيوان؟ لماذا سخر له ما في السموات وما في الأرض؟ أهناك غاية من وجوده؟ أله مهمة في حياته؟ أم وجد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام ــ ثم ينفق كما تنفق الدواب؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هي؟ وكيف يعرفها؟ أسئلة تلح على الإنسان في كل عصر وتتطلب الجواب الذي يشفي الغليل ويطمئن به القلب ، ولا سبيل إلى الجواب الشافي إلا باللجوء إلى الدين إلى العقيدة الدينية الصافية. الدين هو الذي يعرف الإنسان ــ أول ما يعرفه ــ أنه لم يخرج من العدم إلى الوجود صدفة، ولا قام في هذا الكون وحده، وإنما هو مخلوق لخالق عظيم، هو ربه الذي خلقه فسواه فعدله ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وأمده بنعمه الغامرة، منذ كان جنينا في بطن أمه: (ألم نخلقكم من ماء مهين، فجعلناه في قرار مكين، إلى قدر معلوم، فقدرنا فنعم القادرون).

وهذا الكون الكبير من حوله ليس غريبا عنه ولا عدوا له، إنه مخلوق مثله لله لا يسير جزافا ولا يمشي اعتباطا، كل شيء فيه بقدر، وكل أمر فيه بحساب وميزان، إنه نعمة من الله للإنسان ورحمة، ينعم بخيراته، ويستفيد من بركاته، ويتأمل في آياته، فيستدل به عن ربه: (الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى)، (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب).

بهذه العقيدة يرتبط الإنسان بالوجود الكبير، وبرب الوجود كله، ولا يعيش منطويا على نفسه، معزولا عما حوله، أو خائف منه.

والدين هو الذي يعرف الإنسان: إلى أين يسير بعد الحياة والموت؟ إنه يعرفه أن الموت ليس فناء محضا، ولا عدما صرفا، إنما هو انتقال إلى مرحلة أخرى . . إلى حياة برزخية بعدها نشأة أخرى توفى فيها كل نفس ما كسبت، وتخلد فيما

عملت، فلا يضيع هناك عمل عامل من ذكر أو أنثى، ولا يفلت من العدل الإلهي جبار أو مستكبر: (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) بهذا يعيش الإنسان بوجدانه في الخلود، ويعلم أنه خلق للأبد، وإنما انتقل بالموت من دار إلى دار.

والدين هو الذي يعرف الإنسان: لماذا خلق؟ ولماذا كرم وفضل؟ يعرفه بغاية وجوده، ومهمته فيه، إنه لم يخلق عبثا، ولم يترك سدى، إنه خلق ليكون خليفة الله في الأرض، يعمرها كما أمر الله، ويسخرها لما يحب الله، يكشف مكنوناتها، ويأكل من طيباتها، غير طاغ على حق غيره، ولا ناس حق ربه. وأول حقوق ربه عليه أن يعبده وحده، ولا يشرك به شيئا، وأن يعبده بما شرع، على ألسنة رسله، الذين بعثهم إليه هداة معلمين، مبشرين ومنذرين، فإذا أدى مهمته في هذه الدار المحفوفة بالتكليف والابتلاء، وجد جزاءه هناك في الدار الآخرة: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا).

بهذا يدرك الإنسان سر وجوده، ويستبين مهمته في الحياة، بينها له بارئ الكون، وواهب الحياة، وخالق الإنسان.

إن الذي يعيش بغير دين ـــ بغير عقيدة في الله والآخرة ـــ إنسان شقي محروم حقا. إنه في نظر نفسه مخلوق حيواني، ولا يفترق عن الحيوانات الكبيرة التي تدب على الأرض من حوله . . . والتي تعيش وتتمتع ثم تموت وتنفق، بدون أن تعرف لها هدفا، أو تدرك لحياتها سرا، إنه مخلوق صغير تافه لا وزن له ولا قيمة، وجد ولا يعرف: كيف وجد، ولا من أوجده؟ ويعيش ولا يدرى: لماذا يعيش؟ ويموت ولا يعلم لماذا يموت؟ وماذا بعد الموت؟ إنه في شك ـــ بل في عمى ـــ من أمره كله: محياه ومماته، مبدئه ومنتهاه، كالذين قال الله فيهم: (بل أدارك علمهم في الآخرة، بل هم في شك منها، بل هم منها عمون).

وما أقسى حياة إنسان يعيش في جحيم الشك والحيرة أو في ظلمات العمى والجهل، في أخص ما يخصه: في حقيقة نفسه، وسر وجوده، وغاية حياته. إنه

الشقي التعيس حقا، وإن غرق في الذهب والحرير وأسباب الرفاهية والنعيم، وحمل أرقى الشهادات، وتسلم أعلى الدرجات!

إن حاجة الإنسان إلى الدين تنبثق ــ قبل كل شيء ــ من حاجته إلى معرفة حقيقة نفسه وإلى معرفة حقائق الوجود الكبرى، وأول هذه الحقائق وأعظمها:

وجود الله تعالى ووحدانيته وكماله سبحانه، فبمعرفته والإيمان به ــ جل شأنه ــ تنحل عقد الوجود، ويتضح للإنسان الغاية والوجهة، ويتحدد المنهج والطريق.

*** حاجة الفطرة البشرية إلى الدين:**

2- ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية، ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضا، فالإنسان ليس عقلا فقط، كالأدمغةالإلكترونية، إنما هو عقل ووجدان وروح، هكذا تكونت فطرته، ونطقت جبلته. فالإنسان بفطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة، ولا يشبع نهمته فن ولا أدب، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة، ويظل قلق النفس، جوعان الروح، ظمآن الفطرة، وشاعرا بالفراغ والنقص، حتى يجد العقيدة في الله،فيطمئن بعد قلق، ويسكن بعد اضطراب، ويأمن بعد خوف، ويحس بأنه وجد نفسه.

يقول الفيلسوف "أجوست سياته" في كتابه "فلسفة الأديان":

"لماذا أنا متدين؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة، إلا وأراني مسوقا للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو: أنا متدين، لأني لا أستطيع خلاف ذلك، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي. يقولون لي: ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج، فأقول لهم: قد اعترضت على نفسي كثيرا بهذا الاعتراض نفسه، ولكني وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها".

ولا عجب أن وجدنا هذه العقيدة عند كل الأمم، بدائية ومتحضرة، وفي كل القارات شرقية وغربية، وفى كل العصور قديمة وحديثة، وإن كان الأكثرون قد انحرفوا بها عن الصراط المستقيم.

يقول المؤرخ الإغريقي "بلوتارك": قد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد...

ولهذا جعل القرآن الدين ــ بمعنى العقيدة ــ هو الفطرة البشرية نفسها: (فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرت الله التي فطر الناس عليها).

*** حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية:**

3- وثمة حاجة أخرى إلى الدين: حاجة تقتضيها حياة الإنسان وآماله فيها، وآلامه بها... حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوي إليه، وإلى سند متين يعتمد عليه، إذا ألمت به الشدائد، وحلت بساحته الكوارث، ففقد ما يحب، أو واجه ما يكره، أو خاب ما يرجو، أو وقع به ما يخاف، هنا تأتي العقيدة الدينية، فتمنحه القوة عند الضعف، والأمل في ساعة اليأس، والرجاء في لحظة الخوف، والصبر في البأساء والضراء، وحين البأس.

إن العقيدة في الله وفي عدله ورحمته، وفي العوض والجزاء عنده في دار الخلود، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية، فتشيع في كيانه البهجة، ويغمر روحه التفاؤل، وتتسع في عينه دائرة الوجود، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق، ويهون عليه ما يلقى وما يكابد في حياته القصيرة الفانية، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه ولا يغنى عنه علم ولا فلسفة ولا مال ولا ولد ولا ملك المشرق والمغرب.

ورضي الله عن عمر إذ قال: "ما أصبت بمصيبة إلا كان لله علي فيها أربع نعم: أنها لم تكن في ديني... وأنها لم تكن أكبر منها... وأنني لم أحرم الرضا عند نزولها... وأنني أرجو ثواب الله عليها".

أما الذي يعيش في دنياه بغير دين، بغير إيمان، يرجع إليه في أموره كلها وبخاصة إذا ادلهمت الخطوب، وتتابعت الكروب، والتبست على الناس المسالك والدروب، يستفتيه فيفتيه، ويسأله فيجيبه، ويستعينه فيعينه، ويمنحه المدد الذي لا

يغلب، والعون الذي لا ينقطع الذي يعيش بغير هذا الإيمان يعيش مضطرب النفس، متحير الفكر، مبلبل الاتجاه، ممزق الكيان، شبهه بعض فلاسفة الأخلاق بحال "راقاياك" التعس، الذي يحكون عنه أنه اغتال الملك، فكان جزاؤه أن يربط من يديه ورجليه إلى أربعة من الجياد، ثم ألهب ظهر كل منها، لتتجه مسرعة، كل واحد منها إلى جهة من الجهات الأربع، حتى مزق جسمه شر ممزق!

هذا التمزق الجسمي البشع مثل للتمزق النفسي الذي يعانيه من يحيا بغير دين، ولعل الثاني أقسى من الأول وأنكى في نظر العارفين المتعمقين، لأنه تمزق لا ينتهي أثره في لحظات، بل هو عذاب يطول مداه، ويلازم من نكب به طول الحياة.

ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرضون أكثر من غيرهم للقلق النفسي، والتوتر العصبي، والاضطراب الذهني، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة، فإما انتحروا انتحارا سريعا، وإما عاشوا مرضى النفوس، أمواتا كالأحياء!

وهذا ما يقرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسي في العصر الحديث وهو ما سجله المفكرون والنقاد في العالم كله.

*** حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية:**

4- وهناك حاجة أخرى إلى الدين: حاجة اجتماعية، إنها حاجة إلى بواعث وضوابط: بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البشر من يراقبهم، أو يكافئهم . . وضوابط تحكم علاقاتهم، وتلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده، ولا يعتدي على حق غيره أو يفرط في خير مجتمعه، من أجل شهوات نفسه، أو منفعته المادية العاجلة.

*** حاجة المجتمع إلى التعاون والتماسك:**

5- ثم إن للدين دورا كبير الأهمية في توثيق الصلة بين الناس بعضهم وبعض، باعتبارهم جميعا عبيدا لرب واحد خلقهم، وأبناء لأب واحد نسلهم، فضلا عما ينشئه الدين بينهم من أخوة العقيدة، وآصرة الإيمان.

(إنما المؤمنون إخوة) وما تحدثه هذه الأخوة الدينية من آثار في الأنفس والحياة، حتى نجد أحدهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، بل يؤثر أخاه على نفسه، ولو كان به خصاصة.

شهادة التاريخ والواقع:

إن تجارب التاريخ وتجارب الواقع كلها تنطق بأصالة الإيمان في الحياة، وضرورته للإنسان، فهو ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويزكو، وهو ضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرقى.

يقول الأستاذ العقاد: "إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه، ويستطيع الرد أن يستغني عنه، في علاقته بتلك الجماعة، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية من حوله، ولو كانوا من أقرب الناس إليه".

"ويكرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين، وكل ما عداه من العوامل الأخرى في حركات الأمم، فإنها تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة.

"ومن أدلة الواقع على أصالة الدين: أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة، والجماعة التي لا دين لها، أو لا تعتصم من الدين بركن مكين.

"وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة، وفرد معطل الضمير، مضطرب الشعور، يمضي في الحياة بغير محور يلوذ به، وبغير رجاء يسمو إليه.

"لهذا.. الفارق بين الجماعتين، وبين الفردين، كالفارق بين شجرة راسخة في منبتها وشجرة مجتثة من أصولها!

لا بديل عن الدين :

ومن الناس من يتصور إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حينا، أو المذاهب الفكرية "الأيديولوجيات" الحديثة حينا آخر.

وكلا التصورين خطأ.

فقد بين الواقع الناطق أنه لا شيء يغني عن الدين، ويقوم بديلا عنه في أداء رسالته الضخمة في حياة الإنسان.

العلم ليس بديلا عن الدين:

أما العلم فليس بديلا عن الدين والإيمان بحال. فإن مجال العلم غير مجال الدين. وأريد بــ "العلم" هنا العلم بمفهومه الغربي المحدود، لا بمفهومه الإسلامي الشامل ــ الذي يشمل العلم بالظواهر الجزئية للكون، والعلم بحقائق الوجود الكبرى ــ أي ما يشمل علم الدنيا، وعلم الدين. فليس هو علم المادة وخواصها فحسب، بل العلم المتعلق بالكون والحياة والإنسان، وخالقها سبحانه.

العلم بالمفهوم الغربي لا يصلح بديلا عن الدين، لأن مهمة هذا العلم أن ييسر للإنسان أسباب الحياة، لا أن يفسر له ألغازها. العلم يعين الإنسان على حل مشكلة العيش، ولكنه لا يعينه على حل مشكلة الوجود وقضاياه الكبرى.

الفلسفة ليست بديلا عن الدين:

لقد تبين لنا أن إنسان العلم الحديث هو" ذلك المجهول" الذي لم يستطع العلم أن يسبر غوره، وأن يتعرف على حقيقته، وأن ينفذ إلى أعماقه، كما بين ذلك "ألكسيس كاريل" و "رينيه دوبو"، وغيرهما. لقد عرف العلم الجمادات أو المادة، وحللها واكتشف قوانينها، ولكنه عجز عن معرفة الإنسان، لأن الإنسان من التركيب والتعقيد بحيث لا يعرفه إلا من خلقه فسواه: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).

ومادام العلم يجهل الإنسان، فلا يؤمل منه أن يحسن توجيهه وتربيته والتشريع له، بل بدا اليوم أن العلم ــ بعبارة أدق :تطبيقاته التكنولوجية ــ أصبح خطرا على فطرة الإنسان، وبيئة الإنسان.

و"إنسان الفلسفة" ليس أحسن حظا من إنسان العلم، والفلسفة رغم اهتمامها بالإنسان ــ منذ أنزلها "سقراط" من السماء إلى الأرض ووجه العقل الإنساني إلى محاولة اكتشاف ذاته: اعرف نفسك ــ لم تتفق على رأي في نظرتها إلى الإنسان:

أهو روح أم مادة؟ جسم يفنى أم روح يبقى؟ عقل أم شهوة؟ ملاك أم شيطان؟ الأصل فيه الخير أم الشر؟ أهو إنسان كما نراه، أم ذئب مقنع؟ أو أناني أم غيري؟ أهو فردي أم جماعي؟ أهو ثابت أم متطور؟ أتجدي فيه التربية أم لا تجدي؟ أهو مختار أم مجبور؟

اختلفت الفلسفات في الإجابة عن هذه التساؤلات وتناقضت، فلا تستطيع أن تخرج منها بطائل، حتى قال شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود ــ وهو أستاذ الفلسفة في كلية أصول الدين ــ قبل أن يكون شيخا للأزهر" :الفلسفة لا رأي لها، لأنها تقول الرأي وضده، والفكرة ونقيضها."

هنا نجد الفلسفة الإلهية مناقضة للفلسفة المادية، والفلسفة المثالية مناقضة للفلسفة الواقعية، وفلسفة الواجب معارضة لفلسفة المنفعة أو اللذة، إلى آخر ما نعرفه من تناقضات في الساحة الفلسفية، فهذا يثبت، وذاك ينفي، وهذا يبني، وذاك يهدم.

ومن هنا لا تستطيع الفلسفة وحدها أن تهدى الإنسان سبيلا أو تشفي له غليلا، أو تمنحه منهجا يركن له ويطمئن إليه، ويقيم حياته على أساسه.

تفنيد مقولة (الدين أفيون الشعب):

أما دعوى الماركسيين: أن الدين (أفيون الشعوب) يفعل في عقولها ما تفعله المخدرات بالأفراد، ويشغلهم عن حقوقهم المسلوبة، بأماني الآخرة، ويخضعهم لإرادة الظلمة والطغاة، فيطيعونهم وهم راضون ــ فهي دعوى مردودة ــ.

ذلك أن الدين الصحيح لا يخدر الشعب، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه في الدنيا، استغراقا بطلب النعيم في الآخرة! الدين الصحيح لا يقر الظلم، ولا يرضى بالفساد والانحراف، فإن صح هذا الادعاء في شأن بعض الأديان، فلا يصح بحال في شأن الإسلام.

الإسلام في الحقيقة ثورة إنسانية كبرى، ثورة لتحرير الإنسان ــ كل إنسان ــ من العبودية والخضوع لغير خالقه. ثورة في عالم الفكر والضمير والشعور، وثورة في عالم الواقع والتطبيق.

وكان عنوان هذه الثورة هي هذه الكلمة العظيمة، كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله" فكل مدع أو متعاط للألوهية في الأرض، بالقول أو بالفعل، هو مزور لا وجود له، ولا يستحق البقاء. وكل الذين زعموا لأنفسهم ــ أو زعم لهم بعض الناس ــ أنهم أرباب مع الله، أو من دون الله، يجب أن يسقطوا إلى الأبد، ويتواروا عن مسرح الحياة.

الناس إذن سواسية، لا يجوز أن يتعبد بعضهم بعضا، أو يطغى بعضهم على بعض، فإذا ظلم بعض الناس وطغى وأفسد، كان على الناس أن يعترضوا طريقه، ويأخذوا على يديه، وإلا كانوا شركاءه في الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله.

أما دعوى الماركسيين: أن الدين (أفيون الشعوب) يفعل في عقولها ما تفعله المخدرات بالأفراد، ويشغلهم عن حقوقهم المسلوبة، بأماني الآخرة، ويخضعهم لإرادة الظلمة والطغاة، فيطيعونهم وهم راضون ــ فهي دعوى مردودة ــ.

ذلك أن الدين الصحيح لا يخدر الشعب، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه في الدنيا، استغراقا بطلب النعيم في الآخرة! الدين الصحيح لا يقر الظلم، ولا يرضى بالفساد والانحراف، فإن صح هذا الادعاء في شأن بعض الأديان، فلا يصح بحال في شأن الإسلام.

الإسلام في الحقيقة ثورة إنسانية كبرى، ثورة لتحرير الإنسان ــ كل إنسان ــ من العبودية والخضوع لغير خالقه. ثورة في عالم الفكر والضمير والشعور، وثورة في عالم الواقع والتطبيق.

وكان عنوان هذه الثورة هي هذه الكلمة العظيمة، كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله" فكل مدع أو متعاط للألوهية في الأرض، بالقول أو بالفعل، هو مزور لا وجود له، ولا يستحق البقاء. وكل الذين زعموا لأنفسهم ــ أو زعم لهم بعض الناس ــ أنهم أرباب مع الله، أو من دون الله، يجب أن يسقطوا إلى الأبد، ويتواروا عن مسرح الحياة.

الناس إذن سواسية، لا يجوز أن يتعبد بعضهم بعضا، أو يطغى بعضهم على بعض، فإذا ظلم بعض الناس وطغى وأفسد، كان على الناس أن يعترضوا طريقه، ويأخذوا على يديه، وإلا كانوا شركاءه في الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله.

يقول القرآن الكريم: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون).

ويقول: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب).

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده".

فهذا دين يحرض على مقاومة الظلم حتى الموت، ويعد الميت في سبيل ذلك شهيدا في سبيل الله، بل في طليعة الشهداء المرموقين، بجوار حمزة بن عبد المطلب، سيد الشهداء، كما قال عليه الصلاة والسلام:

"سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله."

إن الإسلام يربي المسلم على الشعور بالكرامة وعزة النفس، ويجعل ذلك من خصائص الإيمان وآثاره: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)، بل من خصائص الإنسانية ولوازمها: (ولقد كرمنا بني آدم)

ولهذا يبرأ الإسلام من كل من يرضى لنفسه بالذل والمهانة، ويصبر على القيد يوضع في رجله، أو الغل يوضع في عنقه دون أن يقاوم الظلم، أو يحاول التخلص منه، ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة. يقول القرآن:

(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم، وساءت مصيرا).

فهل يقال في مثل هذا الدين الذي يدعو إلى الثورة على الباطل والضعف والعجز والعبودية، ويحرض على نصرة الحق والقوة والحرية ــ إنه أفيون الشعب: يخدره ويمنيه بنعيم الجنة، ليسكت على مظالم حياته الدنيا؟!!

الباب الثاني
مقومات الإسلام
1 - العقيدة

العقيدة الإسلامية هي خاتمة العقائد السماوية، وقد تكفل بيانها والتدليل عليها القرآن الكريم، وسنة الرسول العظيم، متمثلة في الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

هذه العقيدة هي التي تحل لغز الوجود، وتفسر للإنسان سر الحياة والموت وتجيب عن أسئلته الخالدة: من أين؟ والى أين؟ ولم؟ هذه العقيدة ليست من متحدثات الإسلام، ولا مما ابتكره محمد عليه الصلاة والسلام، إنها العقيدة المصفاة، التي بعث بها أنبياء الله جميعا، ونزلت بها كتب السماء قاطبة، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل، إنها الحقائق الخالدة التي لا تتطور ولا تتغير، عن الله وعن صلته بهذا العالم.. ما يبصره منه وما لا يبصره، وعن حقيقة هذه الحياة ودور الإنسان فيها وعاقبته بعدها. إنها الحقائق التي علمها آدم لبنيه، وأعلنها نوح في قومه، ودعا إليها هود وصالح، عادا وثمود، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله، وأكدها موسى في توراته، وداود في زبوره، وعيسى في إنجيله كل ما فعله الإسلام، هو أنه نقى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة، وصفاها من الأجسام الغريبة، التي أدخلتها العصور عليها، فكدرت صفاءها، وأفسدت توحيدها بالتثليث والشفاعات، واتخاذ الأرباب من دون الله، وأفسدت تنزيهها بالتشبيه والتجسيم، ونسبة ما في البشر من قصور ونقص إلى الله تعالى علوا كبيرا، وشوهت نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم، كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضا جديدا، يليق بالرسالة التي اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية، وأن تكون غاية لكل الشر، إلى قيام الساعة.

جاءت عقيدة الإسلام فنقت فكرة التوحيد وكمال الألوهية مما شابها على مر العصور، ونقت فكرة النبوة والرسالة مما عراها من سوء التصور.

ونقت فكرة الجزاء الأخروي مما دخل عليها من أوهام الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين؟ ودجل المشعوذين.
والعناصر الأساسية لهذه العقيدة هي: الإيمان بالله، والإيمان بالنبوات، والإيمان بالآخرة.
ويكن أن تجمل في: الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده، والإيمان بوحدانيته، والإيمان بكماله.

وجود الله تعالى:

لقد قامت الأدلة على أن وراء هذا الكون قوة عليا تحكمه وتديره وتشرف عليه، سماها أحدهم "العلة الأولى"، وسماها غيره "العقل الأول"، وسماها ثالث: "المحرك الأول"، وسماها القرآن العربي المبين، وكتب السماء بهذا الاسم الجامع لصفات الجمال والجلال: "الله".
هذه القوة العليا، وبعبارة أخرى: هذا الإله العظيم، ليس في استطاعة العقل البشري إدراك كنهه، ولا معرفة حقيقته، كيف وقد عجز عن معرفة كنه ذاته وعن كنه النفس وحقيقة الحياة وكثير من حقائق الكون المادية من كهربية ومغناطيسية وغيرها؟ وما عرف إلا آثارها، فكيف يطمع في معرفة ذات الله العلي الكبير؟
(ذلكم الله ربكم، لا إله إلا هو، خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير).
هذا الإله ليس إله فصيلة محدودة، ولا إله شعب خاص، ولا إله إقليم معين. وإنما هو (رب العالمين).. (رب السموات والأرض)... (رب المشرق والمغرب)... (قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء).
وقد دلل القرآن على وجود الله بطرق عديدة:
1- فهو يلفت العقول والأذهان إلى ما في الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعا حكيما. وهو قانون بديهي عند العقل الذي يؤمن بمبدأ "السببية" إيمانا طبيعيا لا يحتاج إلى اكتساب أو تدليل: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من

ماء فأحيى به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون).

هذا الخلق لا بد له من خالق، وهذا النظام لا بد له من منظم.

(أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السموات والأرض)، (قال فمن ربكما يا موسى، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى).

2- ويستثير الفطرة الإنسانية السليمة التي بها يدرك المرء إدراكا مباشرا أن له ربا وإلها قويا عظيما يكلؤه ويرعاه: (فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

3 - ويتشهد القرآن بالتاريخ الإنساني على أن الإيمان بالله وبرسله كان سفينة النجاة لأصحابه، وأن التكذيب به وبرسله كان نذير الهلاك والبوار، ففي نوح يقول: (فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، إنهم كانوا قوما عمين).

إنما الله إله واحد:

وهو تعالى إله واحد ليس له شريك، ولا له مثيل في ذاته أو صفاته أو أفعاله: (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)... (وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم).

وكل ما في الكون من إبداع ونظام يدل على أن مبدعه ومدبره واحد، ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل يدبر، وأكثر من يد تنظم، لاختل نظامه، واضطربت سننه، وصدق الله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون)... (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون).

هو تعالى واحد في ربوبيته، فهو رب السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن، خلق كل شيء فقدره تقديرا، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولا يستطع

أحد من خلقه أن يدعي أنه الخالق أو الرازق أو المدبر لذرة في السماء أو في الأرض: (وما ينبغي لهم وما يستطيعون).

وهو تعالى واحد في ألوهيته، فلا يستحق العبادة إلا هو، ولا يجوز التوجيه بخوف أو رجاء إلا إليه. فلا خشية إلا منه، ولا ذل إلا إليه، ولا طمع إلا في رحمته، ولا اعتماد إلا عليه، ولا انقياد إلا لحكمه.

وهو تعالى إله واحد ليس له شريك، ولا له مثيل في ذاته أو صفاته أو أفعاله: (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)... (وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم).

وكل ما في الكون من إبداع ونظام يدل على أن مبدعه ومدبره واحد، ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل يدبر، وأكثر من يد تنظم، لاختل نظامه، واضطربت سننه، وصدق الله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون)... (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون).

هو تعالى واحد في ربوبيته، فهو رب السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن، خلق كل شيء فقدره تقديرا، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولا يستطع أحد من خلقه أن يدعي أنه الخالق أو الرازق أو المدبر لذرة في السماء أو في الأرض: (وما ينبغي لهم وما يستطيعون).

وهو تعالى واحد في ألوهيته، فلا يستحق العبادة إلا هو، ولا يجوز التوجيه بخوف أو رجاء إلا إليه. فلا خشية إلا منه، ولا ذل إلا إليه، ولا طمع إلا في رحمته، ولا اعتماد إلا عليه، ولا انقياد إلا لحكمه.

والبشر جميعا ــ سواء أكانوا أنبياء وصديقين أم ملوكا وسلاطين ــ عباد الله، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فمن أله واحدا منهم، أو خشع له وحنى رأسه، فقد جاوز به قدره، ونزل بقدر نفسه.

ومن ثم كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة وإلى أهل الكتاب خاصة: (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله).

والأنبياء جميعا ليسوا ــ في نظر القرآن ــ إلا بشرا مثلنا، اصطفاهم الله لحمل رسالته إلى خلقه، ودعوتهم إلى عبادته وتوحيده.

ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثل في هذه الكلمة العظيمة التي عرفت لدى المسلمين بكلمة "التوحيد" وكلمة" الإخلاص" وكلمة "التقوى" وهي: "لا إله إلا الله."

كانت "لا إله إلا الله" إعلان ثورة على جبابرة الأرض وطواغيت الجاهلية، ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله :سواء أكانت شجرا أم حجرا أم بشرا.

وكانت "لا إله إلا الله" نداء عالميا لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وكل من خلق الله وما خلق الله.

وكانت "لا إله إلا الله" عنوان منهج جديد، ليس من صنع حاكم ولا فيلسوف، إنه منهج الله الذي لا تعنو الوجوه إلا له، ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ولا تخضع إلا لسلطانه.

وكانت "لا إله إلا الله" إيذانا بمولد مجتمع جديد، يغاير مجتمعات الجاهلية، مجتمع متميز بعقيدته، متميز بنظامه، لا عنصرية فيه ولا إقليمية ولا طبقية، لأنه ينتمي إلى الله وحده، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه.

لقد كانت مصيبة البشرية الكبرى أن أناسا منهم جعلوا من أنفسهم أو جعل منهم قوم آخرون آلهة في الأرض أو أنصاف آلهة، لهم يخضع الناس ويخشعون، ولهم يركعون ويسجدون، ولهم ينقادون ويسلمون.

لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين فلم يعد عندهم بشر إلها، ولا نصف إله، أو ثلث إله، أو ابن إله، أو محلا حل فيه الإله!

ولم يعد البشر يسجد لبشر أو ينحني لبشر، أو يقبل الأرض بين يدي بشر، وهذا أصل الأخوة الإنسانية الحقة. وأصل الحرية الحقة، وأصل الكرامة الحقة، إذ لا أخوة بين عابد ومعبود، ولا حرية لإنسان أمام إله أو مدعي ألوهية، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذه حكما من دون الله.

كمال الله تعالى:

ولا بد مع الإيمان بوجود الله ووحدانيته من الإيمان بأنه تعالى متصف بكل كمال يليق بذاته الكريمة، منزه عن كل نقص: (لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد).. (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

دل على ذلك: هذا الكون البديع وما فيه من إحكام عجيب، وهدت إلى ذلك الفطرة البشرية النيرة، وفصلت ذلك رسالات الله تعالى إلى أنبيائه.

الإله في الإسلام ليس بمعزل عن هذا الكون وما فيه من فيه كإله أرسطو الذي سماه "المحرك الأول" أو "العلة الأولى" ووصفه بصفات كلها "سلوب" لا فاعلية لها ولا تأثير، ولا تصريف ولا تدبير، فإذا هذا الإله كما صورته الفلسفة الأرسطية ــ لا يعلم إلا ذاته، ولا يدري شيئا عما يدور في هذا الكون العريض.

الإله في الإسلام هو خالق كل شيء، ورازق كل حي، ومدبر كل أمر، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، ووسع كل شيء رحمة، فخلق فسوى، وقدر فهدى، يسمع ويرى، ويعلم السر والنجوى: (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة).

الإيمان بالنبوات:

والإيمان بالنبوة ليس بالأمر العجيب بعد الإيمان بكمال الله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتدبير للعالم، وتكريمه للإنسان، بل هذا الإيمان فرع عن ذلك ولا

بد، فما كان الله ليخلق الإنسان، ويسخر له ما في الكون جميعا، ثم يتركه يتخبط على غير هدى، بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الآخرة كما هداه سبيل الحياة الدنيا، وأن يهيئ له زاده الروحي، كما هيأ له زاده المادي، وأن ينزل الوحي من السماء لحيي به القلوب والعقول، كما أنزل من السماء ماء لتحيى به الأرض بعد موتها.

ما كان من الحكمة أن يترك الإنسان لنفسه تتنازع الفرد قواه وملكاته المختلفة، وتتنازع الجماعة أهواؤها ومصالحها المتضاربة، وإنما كانت الحكمة في عكس هذا. كانت الحكمة في إرسال رسله بالبينات، ليهدوا الناس إلى الله، ويقيموا الموازين بالقسط بين العباد.

ولهذا استنكر رسل الله من قومهم أن يعجبوا لإرسال الله رسولا عنه يبلغهم بأمره ونهيه، فيقول نوح: (يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون).

الإيمان بالآخرة:

أهذا ملخص قصة الحياة والإنسان؟ أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء بعد هذا؟ أو كما عبر القرآن عن قوم: (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين).

إذن فما سر هذا الشعور الخفي، والوجدان الكامن الذي يغمر فطرة الإنسان من قديم الزمن بأنه لم يخلق لمجرد هذه الحياة، ولتلك المدة القصيرة؟ ما سر هذا الشعور بأن الإنسان في هذه الدنيا غريب أو عابر سبيل وأنه ضيف يوشك أن يرتحل إلى دار إقامة؟

هذا الشعور الذي رأيناه عند قدماء المصريين فحنطوا ــ استجابة له ــ جثث الموتى، وبنوا الأهرام، والذي ظهرت آثاره في أمم شتى بأساليب مختلفة.

ثم كيف يسيغ العقل أن ينفض سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب، وسرق فيها من سرق، وقتل فيها من قتل. وبغى فيها من بغى، وتجبر من تجبر،

ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه، بل تستر واختفى فأفلت ونجا.. أو تمكن من إخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت.

وفي الجانب الآخر: كم أحسن قوم، وضحوا وجاهدوا ولم ينالوا جزاء ما قدموا، إما لأنهم كانوا جنودا مجهولين، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم، أو لأن الموت عاجلهم قبل أ، ينعموا بثمرة ما عملوا من خير. وكم من قوم دعوا إلى الحق، واستمسكوا به، ودافعوا عنه، فوقف الظالمون في طريقهم، وأوذوا وعذبوا واضطهدوا وشردوا، وسقطوا صرعى في سبيله. وأعداؤهم الطغاة في أمن وعافية بل في ترف ونعيم.

ألا يسيغ العقل ـــ الذي يؤمن بعدالة الإله الواحد ـــ بل يطلب، أن توجد دار أخرى يجزى فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟ هذا ما تنطق به الحكمة السارية في كل ذرة في السموات والأرض: (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين).

خصائص العقيدة الإسلامية:

1- عقيدة واضحة:

للعقيدة الإسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد..

فهي عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، تتلخص في أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم ربا واحدا خلقه ونظمه .وقدر كل شيء فيه تقديرا، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد: (بل له ما في السموات والأرض، كل له قانتون).

وهذه عقيدة واضحة مقبولة، فالعقل دائما يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة، ويريد أن يرجع الأشياء دوما إلى سبب واحد.

فليس في عقيدة التوحيد ما في عقائد التثليث أو المثنوية ونحوها من الغموض والتعقيد الذي يعتمد دائما على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين: "اعتقد وأنت أعمى."

2 – عقيدة الفطرة:

وهى عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها، بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم، وهذا هو صريح القرآن: (فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وصريح الحديث النبوي: "كل مولود يولد على الفطرة ـــ أي على الإسلام وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه". فدل على أن الإسلام هو فطرة الله، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين.

3– عقيدة ثابتة:

وهى عقيدة ثابتة محددة لا تقبل الزيادة والنقصان، ولا التحريف والتبديل فليس لحاكم من الحكام، أو مجمع من المجامع العلمية، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية، أن يضيف إليها أو يحور فيها، وكل إضافة أو تحوير مردودة عل صاحبها، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد" أي مردود عليه.

والقرآن يقول مستنكرا: (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله).. وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التي دست في بعض كتب المسلمين أو أشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه.

4– عقيدة مبرهنة:

وهي عقيدة "مبرهنة" لا تكتفي من تقرير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى" :أعتقد وأنت أعمى" أو "آمن ثم اعلم" أو "أغمض عينيك ثم اتبعني" أو "الجهالة أم التقوى"، بل يقول كتابها بصراحة: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)، ولا يقول أحد علمائها ما قاله

القديس الفيلسوف المسيحي "أوغسطين": "أومن بهذا لأنه محال"! بل يقول علماؤها: إن إيمان المقلد لا يقبل.

وكذلك لا تكتفي بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليهما أساسا للاعتقاد، بل تتبع قضاياها بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع، والتعليل الواضح، الذي يملك أزمة العقول، ويأخذ الطريق إلى القلوب، ويقول علماؤها: إن العقل أساس النقل... والنقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح.

5- عقيدة وسط:

وهى عقيدة وسط لا تجد فيها إفراطا ولا تفريطا..

هي وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم، وبين الذين يثبتون للعالم أكثر من إله، بل يحلون روح الإله في الملوك والحكام! بل في بعض الحيوانات والنبات مثل الأبقار والأشجار !فقد رفضت الإنكار الملحد، كما رفضت التعديد الجاهل، والإشراك الغافل، وأثبتت للعالم إلها واحدا، لا إله إلا هو: (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله، قل أفلا تذكرون، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله، قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون، سيقولون لله، قل فأنى تسحرون).

2 – العبادة

مهمة الإنسان في هذا الوجود:

لماذا وجدت؟ وما مهمتي في هذا الوجود؟ ورسالتي في هذه الحياة؟

سؤال واجب على الإنسان ــ كل إنسان ــ أن يسأله لنفسه، وأن يفكر مليا في جوابه.

فإن كل جهل ــ مهما عظمت نتائجه ــ قد يغتفر، إلا أن يجهل الإنسان سر وجوده، وغاية حياته، ورسالة نوعه وشخصه في هذه الأرض!

وأكبر العار على هذا الكائن الذي أوتي العقل والإرادة ــ الإنسان ــ أن يعيش غافلا، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام، لا يفكر في مصيره، ولا يدري شيئا عن حقيقة نفسه، وطبيعة دوره في هذه الحياة حتى يوافيه الموت بغتة، فيواجه مصيره المجهول، دون استعداد له، ويجني ثمرة الغفلة والجهل والانحراف في عمره الطويل أو القصير، وحينئذ يندم حين لا ينفع الندم ويرجو الخلاص ولات حين مناص.

لهذا كان لزاما على كل بشر عاقل أن يبادر فيسأل نفسه بجد: لماذا خلقت؟ وما غاية خلقي؟

لماذا خلق الإنسان..؟

والجواب عن هذا السؤال عند المؤمنين حاضر: ذلك أن كل صانع يعرف سر صنعته: لماذا صنعها؟ ولماذا صنعها على نحو معين دون غيره؟

والله تعالى هو صانع الإنسان وخالقه ومدبر أمره، فلنسأله: يا رب لماذا خلقت هذا الإنسان؟ هل خلقته لمجرد الطعام والشراب؟ هل خلقته للهو واللعب؟ هل خلقته لمجرد أن يمشى على التراب، ويأكل مما خرج من التراب، ثم يعود كما كان إلى التراب، وقد ختمت القصة؟ هل ليعيش تلك الفترة القصيرة المعذبة ما بين صرخة الوضع وأنة النزع؟ إذن فما سر هذه القوى والملكات التي أودعتها الإنسان من عقل وإرادة وروح؟

وسيرد الله على تساؤلنا بما بين لنا في كتابه ــ كتاب الخلود ــ أنه خلقه ليكون خليفة في الأرض، وهذا واضح في آدم وما كان من تمنى الملائكة لمنزلته: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون.(

وأول شيء في هذه الخلافة أن يعرف الإنسان ربه حق معرفته ويعبده حق عبادته، قال تعالى: (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما)، وفي هذه الآية جعلت معرفة الله هي الغاية من خلق السموات والأرض.

ويقول تعالى: (وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرازق ذو القوة المتين).

إن المتأمل في هذا الكون الذي نعيش فيه يرى كل شيء فيه يحيا ويعمل لغيره، فنحن نرى أن الماء للأرض، والأرض للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن؟ هذا هو السؤال.

والجواب الذي تنادي به الفطرة، وتنطق به مراتب الكائنات في هذا الكون: أن الإنسان لله.. لمعرفته، لعبادته.. للقيام بحقه وحده.. ولا يجوز أن يكون الإنسان لشيء آخر في الأرض أو في الأفلاك، لأن كل العوالم العلوية والسفلية مسخرة له، وتعمل في خدمته كما هو شاهد، يكون هو لها أو يعمل في خدمتها؟

ومن هنا كانت عبادة الإنسان لقوى الطبيعة ومظاهرها من فوقه ومن تحته، كالشمس والقمر والنجوم والأنهار والأبقار والأشجار ونحوها، قلبا للوضع الطبيعي، وانتكاسا بالإنسان أي انتكاس!!

والإنسان إذن بحكم الفطرة ومنطق الكون، إنما هو لله سبحانه لا لغيره، لعبادته وحده، لا لعبادة بشر ولا حجر، ولا بقر ولا شجر، ولا شمس ولا قمر، وكل عبادة لغير الله إنما هي من تزيين الشيطان عدو الإنسان.

العبادة في الشرع خضوع وحب:

العبادة في الإسلام لا بد لها من أمرين:

الأول: هو الالتزام بما شرعه الله ودعا إليه رسله، أمرا ونهيا، وتحليلا وتحريما. وهذا هو الذي يمثل عنصر الطاعة والخضوع لله.

والثاني: أن يصدر هذا الالتزام من قلب يحب الله تعالى. فليس في الوجود من هو أجدر من الله تعالى بأن يحب؟

إذا كان الله قد خلقنا لنعبده، أي لنطيعه طاعة مصحوبة بأقصى الخضوع، الممزوج بغاية الحب، ففي أي شيء تكون هذه الطاعة؟ ــ طاعة الخضوع والحب ــ وفي أي مجال يجب أن تكون؟ إن الجواب عن هذا التساؤل سيبين لنا حقيقة هامة، هي: شمول معنى العبادة في الإسلام، وسعة آفاقها.

وهذا الشمول له مظهران:

الأول: شمولها للدين كله وللحياة كلها، فهي أفق رحب ودائرة واسعة، فهي تشمل الفرائض والأركان الشعائرية من الصلاة والصيام والزكاة والحج. وهي تشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي من ذكر وتلاوة ودعاء واستغفار، وتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد.

وهي تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد، كبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان لليتيم والمسكين وابن السبيل، والرحمة بالضعفاء، والرفق بالحيوان.

وهي تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها، من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

الثاني: شمولها لكيان الإنسان كله ظاهره وباطنه، فالمسلم يعبد الله بالفكر، ويعبد الله بالقلب، ويعبد الله باللسان، ويعبد الله بالسمع والبصر وسائر الحواس، ويعبد الله ببدنه كله، ويعبد الله ببذل المال، ويعبده ببذل النفس، ويعبده بمفارقة الأهل والوطن.

سر العبادة وغايتها:

العبادة غذاء الروح:

فالإنسان ليس هو هذا الغلاف المادي الذي نحسه ونراه، والذي يطلب حظه من طعام الأرض وشرابها. ولكن حقيقة الإنسان في ذلك الجوهر النفيس الذي صار به إنسانا مكرما سيدا على ما فوق الأرض من كائنات. ذلك الجوهر هو الروح.. الذي يجد حياته وزكاته في مناجاة الله عز وجل. وعبادة الله هي التي توفر لهذا الروح غذاءه ونماءه، وتمده بمدد يومي لا ينفد ولا يغيض.

العبودية لله سبيل الحرية:

ثم إن العبودية الخالصة لله هي ــ في واقع الأمر ــ عين الحرية. وسبيل السيادة الحقيقية، فهي ــ وحدها ــ التي تعتق القلب من رق المخلوقين، وتحرره من الذل والخضوع لكل ما سوى الله من أنواع الآلهة والطواغيت التي تستعبد الناس وتسترقهم أشد ما يكون الاسترقاق والاستعباد، وإن ظهروا ــ صورة وشكلا ــ بمظهر السادة الأحرار!

وليس أشرف للإنسان العاقل من أن يعبد من خلقه فسواه فعدله، ويطرح عبادة كل ما سواه ومن سواه.

وليس أجلب لسعادته وسلام ضميره من توجيه همه إلى إله واحد يخصه بالخضوع والحب، فلا تتوزع قلبه الآلهة والأرباب المزيفون: (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل، هل يستويان مثلا)؟

فالعبد السالم لسيد واحد قد استراح؛ إذ عرف ما يرضى سيده فأداه بارتياح وانشراح. أما العبد الذي يملكه شركاء متشاكسون يأمره أحدهم بعكس ما يأمره غيره، فما أتعسه وما أشقاه.!!

العبادة ابتلاء إلهي يصقل الإنسان:

والحياة التي نحياها هذه ــ طالت أو قصرت ــ ليست هي الغاية ولا إليها المنتهى، وما هي إلا محطة انتقال إلى حياة أخرى ودار أخرى؛ حياة البقاء، ودار الخلود.

والإنسان في هذه الدار الفانية إنما يستصلح لتلك الدار الباقية، يستخلفه الله هنا ليعد ويصقل للخلود هناك، ولا شيء يصقله ويهذبه ويعده مثل الابتلاء، فهو البوتقة التي تصهر فيها النفس ويصفو الروح.

العبادة حق الله على عباده:

والعبادة ــ فوق ذلك كله ــ هي حق الخالق ــ جل شأنه ــ على خلقه.

وفى ذلك روى البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: "كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار، فقال لي: "يا معاذ.. أتدري ما حق الله على العباد"؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا."

3 – الأخلاق

مكانة الأخلاق في رسالة الإسلام:

جرت عادة الباحثين في رسالة الإسلام أن يقسموه إلى شعب أربع:

عقائد وعبادات، ومعاملات، وأخلاق، وربما أوهم تأخير شعبة الأخلاق أنها آخر ما يهتم به الإسلام، وأنها لا ترقى إلى مستوى الشعب الأخرى. والحقيقة التي تتجلى لمن يتدبر الإسلام في آيات كتابه وسنة نبيه، ويتأمل نصوصها وروحها: أن الإسلام في جوهره رسالة أخلاقية، بكل ما تحمله هذه الكلمة من عمق وشمول. ولا غرو أن تكون "الأخلاقية" خصيصة من خصائصه العامة.

وليس ذلك لمجرد أن الإسلام حث بقوة على الفضائل، وحذر بقوة من الرذائل، ووصل في هذا وذاك إلى أعلى درجات الإلزام، ورتب على ذلك أعظم مراتب الجزاء، ثوابا وعقابا، في الدنيا والآخرة.

وليس ذلك أيضا لمجرد أن الإسلام عنى بالأخلاق عناية بالغة حتى أن القرآن حين أثنى على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجد أبلغ ولا أرفع من قوله: (وإنك لعلى خلق عظيم).

وحتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليلخص الهدف من رسالته فيقول في إيجاز بليغ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق."

ليست الأخلاقية من خصائص الإسلام لمجرد هذا وذاك. ولكن ـــ بالإضافة إلى ذلك ـــ لأن الأخلاقية تسري في كيان الإسلام كله، وفي تعاليمه كلها، حتى في العقائد والعبادات والمعاملات، وتدخل في السياسة والاقتصاد، والسلم والحرب.

خصائص الأخلاق الإسلامية:

لهذا شاء الله أن تتميز الأخلاق في الإسلام بخصائص انفردت بها عن اليهودية أو المسيحية أو كليهما، وهي الخصائص التي جعلتها صالحة لكل الأفراد وكل الطبقات وكل الأجناس، وكل البيئات، وكل الأزمان، وكل الأحوال.

1- أخلاق معللة مفهومة:

أولى هذه الخصائص أنها برئت من الطابع التعبدي التحكمي الذي عرفت به اليهودية، والذي ظنه بعض الباحثين في الأخلاق لازما ذاتيا لأسلوب الدعوة الأخلاقية في الأديان جميعا، وجهل هؤلاء أن الإسلام على عكس ذلك تماما. إنما يعتمد دائما على الحكم المعقولة، والعلل المقبولة، مخاطبا العقل القويم، والوجدان السليم، مبينا المصالح من وراء ما يأمر به، والمفاسد من جراء ما ينهى عنه، مفصلا تارة، ومجملا أخرى.

2 - أخلاق عالمية:

والأخلاق في الإسلام إنسانية عالمية، لا تبيح لجنس ما تحرمه على آخر، العرب والعجم فيها سواء، بل المسلمون وغيرهم أمام أخلاقها سواسية، الربا حرام مع المسلم والكافر، والسرقة حرام لمال المسلم والكافر، والزنا حرم بالمسلمة وغير المسلمة، والعدل واجب مع المسلم وغير المسلم، والعدوان حرام على المسلم وغير المسلم. وفي هذا يقول القرآن: (لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى).

وبهذا تنزهت الأخلاق الإسلامية عن النزعة العنصرية القومية التي اتسمت بها الأخلاق اليهودية، والأخلاق القبلية والبدائية على وجه العموم.

3 – ملاءمة الفطرة:

جاء الإسلام في مجال الأخلاق بما يلائم الفطرة والطبيعة البشرية ويكملها، لا بما يصادرها ويصدمها فما كان الله ليخلق الإنسان على طبيعة ثم يكلفه أن يقهرها ويقتلها، أو يبطل أثرها ويجمدها.

ومن هنا اعترف الإسلام بالكائن الإنساني، كما خلقه الله، بدوافعه النفسية، وميوله الفطرية، وكل ما صنعه أنه هذبها وسما بها، ووضع لها الحدود التي تصان بها مصلحة المجتمع، ومصلحة الفرد ذاته. ولهذا أباحت الشريعة التمتع بالطيبات والزينة، وشرعت الملكية الخاصة، ولم تنظر للغرائز على أنها رجس من الشيطان.

رغب الإسلام في النظافة والزينة، وجعلهما من مقدمات الصلاة وشروطها (خذوا زينتكم عند كل مسجد).

أنكر القرآن بشدة على الذين يحرمون) زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق).

فإذا كانت المسيحية ترى أن الغنى لا يدخل ملكوت السموات، فالإسلام يقول: "نعم المال الصالح للرجل الصالح."

وإذا كانت المسيحية قد أنشأت نظام الرهبانية العاتي بما فيه من قسوة على الجسد، ومصادرة للنوازع الفطرية، فالإسلام ينهى عن التبتل، ويحض على الزواج، ويرى أن الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة، بل يعتبر السعي على العيال، والقيام على شؤونهم ضربا من الجهاد في سبيل الله.

ولكن الإسلام في كل ما أباحه ــ مراعيا الطبيعة البشرية ــ قد وضح له الضوابط والحدود التي تقف عند حد الاعتدال، ولا يستحيل بالإفراط والغلو إلى انطلاق حيواني ذميم.

4 – مراعاة الواقع:

ومن خصائص الأخلاق الإسلامية: أنها أخلاق واقعية، لا تصدر أوامرها ونواهيها لأناس يعيشون في أبراج عاجية، أو يحلقون في أجواء المثالية المجنحة، إنما تخاطب بشرا يمشون على الأرض، لهم دوافع وشهوات، ولهم مطامع وأمال، ولهم مصالح وحاجات، ولهم من دوافع الجسد ما ينزع بهم إلى الأرض، كما لهم من أشواق الروح ما يرتفع بهم إلى السماء.

ومن واقعية الأخلاق الإسلامية أنها لم تفترض في المؤمنين المتقين أن يكونوا ملائكة أولى أجنحة، لا تسول لهم أنفسهم سوءا يوما، ولا يتورطون في أوحال الرذيلة أبدا، كلا إن الإنسان خلق على طبيعة مزدوجة، جمعت بين طين وحمإ مسنون، وبين نفخة من روح الله. فليس بمستنكر أن يذنب، ثم يتوب .إنما المنكر أن يتمادى في الذنوب ويستمرئ الرذيلة والعصيان. لقد أذنب آدم ــ أبو البشر ــ وتاب فتاب الله عليه، فلا غرابة أن يكون بنوه مثله، لهذا جعل القرآن

من أصناف المتقين: (والذين إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون).

5- الإيجابية:

ومن خصائص الأخلاق في الإسلام: أنها أخلاق إيجابية، فهي لا ترضى من المتحلي بها مسايرة الركب، أو المشي مع التيار، أو العجز والاستسلام للأحداث توجه قياده كالريشة في مهب الريح. إنما تحث على القوة والكفاح، ومواصلة السعي في ثقة وأمل، وتقاوم العجز واليأس، والتماوت والكسل، وكل أسباب الضعف. وفي القرآن الكريم: (خذ الكتاب بقوة).

وفى الحديث: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن "لو" تفتح عمل الشيطان."

ويوصي الرسول بالعمل لعمارة الحياة حتى آخر لحظة في عمر الدنيا، ولو لم ينتفع بثمرة العمل أحد، ولكن احترام لقيمة العمل في ذاته، "إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة يريد أن يغرسها، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها."

لم يكتف الإسلام من المسلم أن يكون مستقيما في نفسه، حتى يعمل على استقامة غيره، ولم يقبل المرء في عداد الفضلاء الصالحين إذا صلح هو، ولم يأبه لفساد المجتمع من حوله، بل فرض على كل مسلم ــ بقدر كفايته واستطاعته ــ الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر والمرحمة، والنصيحة في الدين،

والاهتمام بأمر المسلمين: (كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله).

بهذا رفض الإسلام السلبية أمام الفساد الاجتماعي والسياسي، والتحلل الخلقي والديني، وطلب إلى المسلم أن يغير المنكر بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

والتغيير بالقلب ليس سلبيا كما يظن، ولكنه تعبئة نفسية وشعورية ضد الفساد، لا بد أن تتجسد يوما في عمل ملموس.

6 – الشمول:

ومن خصائص الأخلاق الإسلامية أنها أخلاق شاملة مستوعبة، فإذا ظن بعض الناس أن الأخلاق في الأديان تنحصر في أداء الشعائر التعبدية ونحو ذلك، فهذا إن صح في أخلاق دين ما، لا يصح أن يوصف به قانون الأخلاق في الإسلام. فإن هذا القانون لم يدع للنشاط الإنساني من ناحيتيه: الفردية والاجتماعية مجالا حيويا، أو فكريا، أو أدبيا، أو روحيا، إلا رسم له منهجا للسلوك وفق قاعدة معينة، بل تخطى علاقة الإنسان بنفسه علاقته ببني جنسه، فشمل علاقته بالكون في جملته وتفصيله، ووضع لذلك كله ما شاء الله من الآداب الراقية، والتعاليم السامية، وهكذا جمع ما فرقه الناس باسم الدين، وباسم الفلسفة، ثم كان له عليهما المزيد.

7– التوازن:

ومن خصائص الأخلاق الإسلامية: التوازن الذي يجمح بين الشيء ومقابله في اتساق وتناسق، بلا غلو ولا تفريط.

من ذلك: التوازن بين حق الجسم وحق الروح، فلا حرمان للجسم يصل إلى حد التعذيب، كما في البرهمية الهندية، والمانوية الفارسية، والرواقية اليونانية، والرهبانية المسيحية ونحوها. ولا إغفال لأمر الروح، كما في اليهودية إلى حد كبير، ثم في المذاهب المادية التي لم تعترف للروح بوجود، فضلا عن أن يكون لها حق. ولهذا قال الرسول لبعض أصحابه الذين عزم أحدهم أن يقوم الليل فلا ينام أبدا، وعزم الثاني أن يصوم النهار فلا يفطر أبدا، وعزم الثالث أن يعتزل

النساء فلا يتزوج أبدا: "إنما أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم له، ولكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني."

ومن ذلك: التوازن بين الدنيا والآخرة، فإذا كانت اليهودية تجعل أكبر همها هذا العالم الأرضي الحاضر، والمسيحية تحصر كل توجيهها في ملكوت السماء حيث العالم الآخر، فالإسلام يزاوج بين النظرتين، ويمزج بين الحياتين، فهذه مزرعة لتلك، والله قد استخلف الناس في الأرض، واستعمرهم فيها، فلا ينبغي أن يخربوها أو يعطلوها، والسعيد من فاز

بحسنة الدنيا وحسنة الآخرة: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة)، (وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا).

ومن ذلك التوازن بين الحقوق والواجبات، فلا تدليل للفرد بكثرة الحقوق وإطلاق العنان له باسم الحرية، فيسترخي ويطغى وينحرف ويفسد.. ولا إرهاق له بكثرة الواجبات والأعباء، وان ناء بها ظهره، وخارت قواه، لا باسم المجتمع، ولا باسم غيره.

4 – التشريع

من مقومات الإسلام الأساسية: التشريع، ونعني به الجانب الذي يضبط سير الحياة الإسلامية بمجموعة من الأحكام الشرعية العملية، التي تنظم علاقة الناس بعضهم ببعض في جوانب الحياة المختلفة، وتبين لهم ماذا يحب الله منهم ولهم وماذا يكره.

من أهداف التشريع في الإسلام:

وللتشريع في الإسلام أهداف سامية، ومقاصد عليا، يحرص الشارع الحكيم على تحقيقها في حياة الناس.

وهذا يدلنا على أن أحكام الشرع معللة ومفهومة ومربوطة بمصالح الخلق، وهذا متفق عليه بين المسلمين كافة، إلا فئة قليلة من أهل الظاهر ومن سلك سبيلهم.

والدليل على هذا آيات لا تحصى من كتاب الله، وأحاديث لا تحصى من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلها تعلل الأوامر والنواهي والأحكام، حتى العبادات نفسها، فالصلاة (تنهى عن الفحشاء والمنكر(، والزكاة تؤخذ من أصحاب المال (تطهرهم وتزكيهم بها)، والصيام كتب على الذين آمنوا) لعلكم تتقون)، والحج قد أذنوا به (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معدودات).

وهذا ــ وغيره كثير ــ يدلنا على أن للشرع حكما ومقاصد فيما شرع يجب أن يبحث عنها، وأن تراعى. ومن هذه المقاصد:

1– أن تقوم المعاملات بين الناس على أساس العدل، الذي قامت به السموات والأرض، فلا تجيز لغني ضد فقير، ولا محاباة لقوي على ضعيف، ولا يفضل عربي على عجمي، ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى.

وهذا العدل هو هدف الرسالات السماوية جميعا، كما قال تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط).

2- أن يقوم الإخاء بين الناس، وتمتد جسور الثقة والتفاهم، وتزول أسباب التخاصم والنزاع، وذلك بتحديد الحقوق والواجبات، وتوضيح أركان وشروط المعاملات، ومنع الظلم والغرر والجهالات، وبذلك يعطي كل ذي حق حقه، فتطمئن الأنفس، وتصان الحرمات والدماء والأعراض والأموال، ويستقر التعامل على أساس مكين.

3- المحافظة على مصالح الخلق، بمراتبها الثلاث: الضرورية ـــ التي لا يعيش الإنسان بدونها ـــ والحاجية ـــ التي بدونها يكون الإنسان في حرج وضيق ـــ والتحسينية ـــ التي بها تكتمل حياة الإنسان وتترفه وتمضي على أفضل المسالك، وأحسن العادات والأحوال.

4- أن يفرغ الناس ـــ بعد أن يطمئنوا في معاملاتهم ومبادلاتهم، وسائر علاقاتهم المادية والبشرية ـــ لأداء رسالتهم على الأرض: عبادة الله تعالى، وعمارة لأرضه، وقياما بخلافته فيها، ودعوة للعالم إلى رسالته التي جعلها رحمة للعالمين.

مكانة الحدود في التشريع:

وأحب أن أبين هنا أمرين مهمين:

أولهما: أن الجانب التشريعي أو القانوني ليس هو كل الإسلام ولا جله، كما يتصور بعض الناس أو يصورون، فالإسلام عقيدة تلائم الفطرة، وعبادة تغذي الروح، وخلق تزكو به النفس، وأدب تجمل به الحياة، وعمل ينفع الناس، ويمكث في الأرض ودعوة لهداية العالم إلى الله، وجهاد في سبيل الحق والخير، وتواص بالصبر والمرحمة. كما أنه ـــ في الوقت نفسه ـــ تشريع يضبط سير الحياة، وينظم علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بمجتمعه، وعلاقته بدولته، وعلاقة دولته به، وعلاقتها بالدول الأخرى مسالمة ومحاربة.

إن الإسلام توجيه وتربية وتكوين للفرد الصالح، وللمجتمع الصالح، قبل أن يكون قانونا وتشريعا.

والأمر الثاني: أن الحدود والقصاص والعقوبات جزء محدود في التشريع الإسلامي الواسع، وآيات الحدود والقصاص في القرآن لا تتجاوز عشر آيات من نحو ستة آلاف آية أو تزيد، كما هو معلوم .

من خصائص التشريع في الإسلام الشمول:

خصائص التشريع في الإسلام أنه تشريع شامل كذلك.

إنه لا يشرع للفرد دون الأسرة، ولا للأسرة دون المجتمع، ولا للمجتمع منعزلا عن غيره من المجتمعات في الأمة المسلمة، ولا للأمة معزولة عن غيرها من أمم الأرض، كتابية كانت أو وثنية.

واقعية التشريع الإسلامي:

ومن خصائص التشريع في الإسلام :الواقعية، فهو لم يغفل الواقع في كل ما أحل وما حرم، ولم يهمل هذا الواقع في كل ما وضع من أنظمة وقوانين للفرد، وللأسرة، وللمجتمع، وللدولة، وللإنسانية.

التيسير ورفع الحرج:

ومن خصائص التشريع في الإسلام: التيسير ورفع الحرج عن المكلفين. وهذا التيسير روح يسري في جسم الشريعة كلها، كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية. وهذا التيسير مبني على رعاية ضعف الإنسان، وكثرة أعبائه، وتعدد مشاغله، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه. وشارع هذا الدين رؤوف رحيم، لا يريد بعباده عنتا ولا رهقا، إنما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال والمآل. في المعاش والمعاد.

وهذا ما يحسه يلمسه كل من عرف هذا الدين.

فالقرآن ميسر للذكر، والعقيدة ميسرة للفهم، كما أن الشريعة ميسرة للتنفيذ والتطبيق. ليس فيها تكليف واحد يتجاوز طاقة المكلفين، كيف وقد أعلن القرآن هذه الحقيقة في أكثر من آية، فقال: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها(،

وقد نفي القرآن كل حرج عن هذه الشريعة، كما نفي عنها العنت والعسر، وأثبت لها التخفيف واليسر. قال تعالى وهو يحدثنا عن رخص الصيام، من الفطر للمريض والمسافر: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر).

وجاءت الأحاديث النبوية تؤكد هذا الاتجاه القرآني إلى التيسير نقرأ فيها: "بعثت بحنيفية سمحة" "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين".

ولا غرو أن شرع الإسلام الرخص عند وجود أسبابها. وذلك كالترخيص في التيمم لمن خاف التضرر باستعمال الماء لجرح أو لبرد شديد، ونحو ذلك، لقوله تعالى: (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما)، (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة).

وكذلك الترخيص في الصلاة قاعدا لمن تضرر الصلاة قائما، والصلاة بالإيماء مضطجعا، أو مستلقيا لمن تؤذيه الصلاة قاعدا.

ومثل ذلك الترخيص في الإفطار للحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، وكذلك لمن كان مريضا أو على سفر، ومثله الترخيص للمسافر في القصر والجمع في الصلاة.

مراعاة سنة التدرج:

ومن تيسير الإسلام على البشر: أنه راعى معهم سنة التدرج فيما يشرعه لهم، إيجابا أو تحريما.

فتجده حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة، فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت إلى الصور الأخيرة.

فالصلاة فرضت أول ما فرضت ركعتين ركعتين، ثم أقرت في السفر على هذا العدد، وزيدت في الحضر إلى أربع. أعني الظهر والعصر والعشاء.

والصيام فرض أولا على التخيير، من شاء صام ومن شاء أفطر وفدى، أي: أطعم مسكينا عن كل يوم يفطره، كما روى ذلك البخارى عن سلمة بن الأكوع، تفسيرا لقوله تعالى: (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين، فمن تطوع خيرا فهو خير له، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون)، ثم أصبح الصيام فرضا لازما لكل صحيح مقيم لا عذر له: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه).

والزكاة فرضت أولا بمكة مطلقة غير محددة ولا مقيدة بنصاب ومقادير وحول، بل تركت لضمائر المؤمنين، وحاجات الجماعة والأفراد، حتى فرضت الزكاة ذات النصب والمقادير في المدينة.

والمحرمات كذلك، لم يأت تحريمها دفعة واحدة، فقد علم الله سبحانه مدى سلطانها على الأنفس، وتغلغلها في الحياة الفردية والاجتماعية.

ولعل أوضح مثل معروف في ذلك هو تحريم الخمر على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي، حتى إذا نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة، وفي ختامها: (فهل أنتم منتهون)؟. قال المؤمنون في قوة وتصميم: قد انتهينا يا رب.

وهذه السنة الإلهية في رعاية التدرج، ينبغي أن تتبع في سياسة الناس، وعندما يراد تطبيق نظام الإسلام في الحياة، واستئناف حياة إسلامية متكاملة.

فإذا أردنا أن نقيم (مجتمعا إسلاميا حقيقيا) فلا نتوهم أن ذلك يتحقق بجرة قلم، أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس، أو مجلس قيادة أو برلمان.

إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، أعني بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية، والأخلاقية والاجتماعية.

الباب الثالث

خصائص الإسلام

الربانية

إن الخصيصة الأولى من الخصائص العامة للإسلام هي: الربانية.

والربانية ــ كما يقول علماء العربية ــ مصدر صناعي منسوب إلى "الرب"، زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس، ومعناه :الانتساب إلى الرب، أي: الله، سبحانه وتعالى، ويطلق على الإنسان أنه "رباني" إذا كان وثيق الصلة بالله، عالما بدينه وكتابه، معلما له. وفي القرآن الكريم: (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون).

والمراد من الربانية هنا أمران:

1- ربانية الغاية والوجهة. 2- ربانية المصدر والمنهج.

1- ربانية الغاية والوجهة:

فأما ربانية الغاية والوجهة، فنعني بها: أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته، فهذه هي غاية الإسلام، وبالتالي هي غاية الإنسان، ووجهة الإنسان، ومنتهى أمله، وسعيه، وكدحه في الحياة: (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه)، (وأن إلى ربك المنتهى).

ولا جدال في أن للإسلام غايات وأهدافا أخرى إنسانية واجتماعية، ولكن عند التأمل، نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر، وهو مرضاة الله تعالى، وحسن مثوبته. فهذا هو هدف الأهداف، أو غاية الغايات.

2- ربانية المصدر والمنهج:

ذكرنا ما يتعلق بالمعنى الأول للربانية، وهو ربانية الغاية والوجهة، وبقي المعنى الآخر، وهو ربانية المصدر والمنهج. ونعني به أن المنهج الذي رسمه

الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه، منهج رباني خالص، لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم.

لم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو إرادة أسرة، أو إرادة طبقة، أو إرادة حزب، أو إرادة شعب، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله، الذي أراد به الهدى والنور، والبيان والبشرى، والشفاء والرحمة لعباده. كما قال تعالى يخاطبهم: (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا)، (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.(

موضع الرسول في هذا المنهج الإلهي:

الله تعالى هو صاحب هذا المنهج، ولهذا يضاف إليه فيقال: منهج الله، أو "صراط الله" على حد تعبير القرآن العزيز، وإضافته إلى الله تعني أن الله ــ جل شأنه ــ هو واضعه ومحدده، كما أنه غايته ومنتهاه.

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فهو الداعي إلى هذا المنهج أو هذا الصراط، المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره. يقول تعالى مخاطبا رسوله: (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور.(

ميزة الإسلام بين المناهج القائمة في العالم:

إن الإسلام هو المنهج أو المذهب أو النظام الوحيد في العالم، الذي مصدره كلمات الله وحدها، غير محرفة ولا مبدلة و لامخلوطة بأوهام البشر، وأغلاط البشر، وانحرافات البشر.

والمناهج أو الأنظمة التي نراها في العالم إلى اليوم ثلاثة، فيما عدا الإسلام طبعا:

1- منهج، أو مذهب، أو نظام مدني بشري محض، مصدره التفكير العقلي، أو الفلسفي لبشر فرد، أو مجموعة من الأفراد، كالشيوعية، والرأسمالية والوجودية، وغيرها.

2- منهج أو نظام ديني بشري كذلك. مثل الديانة البوذية القائمة في الصين، واليابان، والهند، والتي لا يعرف لها أصل إلهي، أو كتاب سماوي، فمصدرها إذن فكر بشري.

3- منهج أو مذهب ديني محرف، فهو ــ وإن كان إلهيا في أصله ــ عملت فيه يد التحريف والتبديل فأدخلت فيه ما ليس منه، وحذفت منه ما هو فيه، واختلط فيه كلام الله بكلام البشر، فلم يبق ثمت ثقة بربانية مصدره، وذلك كاليهودية والنصرانية، بعد ثبوت التحريف في التوراة والإنجيل نفسيهما، فضلا عما أضيف إليهما من شروح وتأويلات ومعلومات بشرية، بدلت المراد من كلام الله.

أما الإسلام فهو المنهج الفذ الذي سلم مصدره من تدخل البشر، وتحريف البشر، ذلك أن الله تعالى تولى حفظ كتابه، ودستوره الأساسي بنفسه، وهو القرآن المجيد، وأعلن ذلك لنبيه ولأمته فقال: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

الإسلام منهج رباني خالص:

إن الإسلام منهج رباني، مئة في المائة.(100%)

عقائده وعباداته، وآدابه وأخلاقه، وشرائعه ونظمه، كلها ربانية إلهية. أعني في أسسها الكلية، ومبادئها العامة، لا في التفريعات والتفصيلات والكيفيات.

الإنسانية

ومن خصائص الإسلام العامة بعد الربانية: الإنسانية.

فالإسلام يمتاز بنزعته الإنسانية الواضحة الثابتة الأصيلة في معتقداته وعباداته، وتشريعاته وتوجيهاته، إنه دين الإنسان.

القرآن... كتاب الإنسان:

وإذا نظرنا إلى المصدر الأول للإسلام وهو القرآن كتاب الله، وتدبرنا آياته، وتأملنا موضوعاته واهتماماته، نستطيع أن نصفه بأنه، كتاب الإنسان. فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان.

محمد... الرسول الإنسان:

وإذا نظرنا إلى الشخص الذي جسد الله فيه الإسلام، وجعله مثالا حيا لتعاليمه، وكان خلقه القرآن، نستطيع أن نصفه بأنه " الرسول الإنسان"، وسيرته ليست سيرة إله، ولا بعض إله، ولا ملاك متجرد من اللحم والدم، بل هي سيرة النبي الإنسان.

والقرآن الكريم حريص كل الحرص في شتى المناسبات على تأكيد إنسانية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بمثل قوله تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي إنما إلهكم إله واحد).

من ثمرات الإنسانية في الإسلام:

الإخاء والمساواة والحرية.

هذه النزعة الإنسانية الأصيلة في الإسلام هي أساس هام لمبدأ الإخاء البشري الذي نادى به الإسلام، وهي أساس هام كذلك لمبدأ المساواة الإنسانية العام الذي دعا إليه الإسلام.

وهي أساس هام كذلك لمبدأ الحرية الذي قرره الإسلام، أكد الإسلام الدعوة إلى هذه المبادئ الإنسانية الثلاثة، ووضع الصور العملية لتطبيقها، وربطها بعقائده وشعائره وآدابه ربطا محكما، بحيث لا تظل مجرد أمنية شاعرية تهفو إليها بعض النفوس، أو فكرة مثالية تتخيلها بعض الرؤوس، أو حبر على ورق سطرته بعض الأقلام.

وأكتفي هنا بالحديث عن مبدأ المساواة باعتباره ملازما للإخاء، وثمرة له.

مبدأ المساواة الإنسانية:

أما مبدأ المساواة الإنسانية الذي قرره الإسلام ونادى به، فأساسه: أن الإسلام يحترم الإنسان ويكرمه من حيث هو إنسان؛ لا من أي حيثية أخرى، الإنسان من أي سلالة كان، ومن أي لون كان، من غير تفرقة بين عنصر وعنصر، وبين قوم وقوم، وبين لون ولون، مسقطا كل أنواع التفرقة القبلية والعنصرية والقومية واللونية. يقول القرآن: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير).

إن القيمة الإنسانية واحدة للجميع. فالعربي إنسان، والعجمي إنسان، والأبيض إنسان، والأسود إنسان، والحاكم إنسان، والمحكوم إنسان، والغني إنسان، والفقير إنسان، ورب العمل إنسان، والعامل إنسان، والرجل إنسان، والمرأة إنسان، والحر إنسان، والعبد إنسان، ومادام لكل إنسانا فهم إذن سواسية كأسنان المشط الواحد.

ومن هنا اعتبر الإسلام الاعتداء على نفس أي إنسان اعتداء على الإنسانية كلها، كما جعل إنقاذ أي نفس إنقاذا للجميع، هذا ما قرره القرآن بوضوح: (أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا).

الشمول

الشمول من الخصائص التى تميز بها الإسلام عن كل ما عرفه الناس فى الأديان والفلسفات والمذاهب بكل ما تتضمنه هذه الخاصية من معان وأبعاد.

رسالة الزمن كله:

إنها رسالة لكل الأزمنة والأجيال، ليست موقوتة بعصر معين أو زمن مخصوص، ينتهى أثرها بانتهائه، كما كان الشأن فى رسالة الأنبياء السابقين على محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد كان كل نبى يبعث لمرحلة زمنية محددة حتى إذا ما انقضت بعث الله نبيا آخر.

فهي تتضمن هداية الله الأخيرة للبشرية فليس بعد الإسلام شريعة ولا بعد القرآن كتاب ولا بعد محمد نبي.

رسالة العالم كله:

إنها الرسالة الشاملة التي تخاطب كل الأمم، وكل الأجناس، وكل الشعوب، وكل الطبقات.

رسالة الإنسان كله:

إنها رسالة الإنسان كله: روحه وعقله، وجسمه وضميره، وإرادته ووجدانه.

رسالة الإنسان في أطوار حياته كلها:

إن الإسلام رسالة الإنسان كله، إنها هداية الله تصحب الإنسان أنى اتجه وأنى سار في أطوار حياته طفلاً، ويافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً. وترسم له في كل هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل إلى ما يحبه الله ويرضاه.

رسالة الإنسان في كل مجالات حياته:

ومن معاني الشمول في الإسلام أيضا: أنه رسالة للإنسان في كل مجالات الحياة، وفي كل ميادين النشاط البشري، فلا يدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية إلا كان له فيه موقف.لا يدع الانسان وحده بدون هداية الله في أي طريق يسلكه

وفي أي نشاط يقوم به: مادياً كان أو روحياً ، فردياً أو جماعياً ، فكرياً أو علمياً ، دينياً او سياسياً أقتصادياً أو أخلاقياً.

شمول تعاليم الإسلام:

وإذا كان الإسلام هو رسالة الإنسان كله في كل أطواره ، ورسالة الحياة كلها فلا عجب أن نجد التعاليم الإسلامية كلها تتميز بهذا الشمول.

وهذا الشمول يتجلى في العقيدة والتصور ويتجلى أيضاً في العبادة والتقرب ويتجلى في الأخلاق والفضائل كما أنه يتجلى في التشريع والتنظيم .

شمول العقيدة الإسلامية:

فالعقيدة الإسلامية عقيدة شاملة في أي جانب نظرت إليها:

1 – فهي توصف بالشمول لأنها تفسر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود. القضايا التي شغلت الفكر الإنساني: قضية الألوهية, قضية الكون, قضية الإنسان, قضية النبوة, قضية المصير.

2 – توصف العقيدة الإسلامية بالشمول كذلك, لأنها لا تجزئ الإنسان بين إلهين اثنين إله الخير وإله الشر والظلمة

3 – توصف العقيدة الإسلامية بالشمول من ناحية أخرى: وهي أنها لا تعتمد في ثبوتها على الوجدان أو الشعور وحده، وإنما تعتمد على الفكر والشعور معاً أو العقل والقلب جميعا، باعتبارهما أداتين متكاملتين من أدوات المعرفة الإنسانية، والوعي الإنساني.

4 – وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول أيضاً, لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة, لا بد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار أو حتى شك في أي جزء منها.

شمول العبادة في الإسلام:

فالعبادة في الإسلام تستوعب الكيان البشري كله, فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجردا، أو بحواسه وحدها، بل يعبد الله بهذه كلها.

شمول الأخلاق في الإسلام:

إن الأخلاق في الإسلام لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية: روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع، فما فرقه الناس في مجال الأخلاق باسم الدين وباسم الفلسفة، وباسم العرف أو المجتمع، قد ضمه القانون الأخلاقي في الإسلام في تناسق وتكامل وزاد عليه.

شمول الالتزام بالإسلام كله:

هذا الشمول الذي تميز به الإسلام يجب أن يقابله شمول مماثل من جانب التزام المسلمين: أعني الالتزام بهذا الإسلام كله في شموله وسعته، فلا يجوز الأخذ بجانب من تعاليمه وأحكامه وطرح جانب آخر قصداً أو إهمالاً لأنها (كلٌّ) لا يتجزأ .

الوسطية

وهذه خصيصة أخرى من أبرز خصائص الإسلام وهي (الوسطية) ويعبر عنها بـــ (التوازن) ونعني بها التوسط بين طرفين متقابلين أو متضادين، مثلاً الروحية والمادية، الفردية والجماعية، الواقعية والمثالية.

مظاهر الوسطية في الإسلام:

وإذا كان للوسطية كل هذه المزايا فلا عجب أن تتجلى واضحة في كل جوانب الإسلام، فالإسلام وسط في الاعتقاد، ووسط في التعبد، ووسط في الأخلاق، ووسط في التشريع:

من مظاهر الوسطية في الإسلام:

أولا: وسطية الإسلام في الاعتقاد:

أ – فهو وسط في الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد وبين المادين الذين ينكرون كل ما وراء الحس,

فالإسلام يدعوا إلى الاعتقاد والإيمان ولكن بما قام عليه الدليل القطعي والبرهان اليقيني وماعدا ذلك يرفضه ويعده من الأوهام.

ب – وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط وبين الذين يعبدون الآلهة حتى عبدوا الأبقار وألهو الأحجار.

وسطية الإسلام في العبادات والشعائر:

والإسلام وسط بين عباداته بين الأديان التي ألغت الجانب الرباني من فلسفتها وواجباتها كالبوذية وبين الأديان التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة كالرهبانية المسيحية.

وسطية الإسلام في الأخلاق:

أ- والإسلام وسط في الأخلاق بين غلاة المثالين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً فوضعوا له من القيم مالا يمكن له، وبين غلاة الواقعين الذين حسبوه كالحيوان فأرادوا له من السلوك مالا يليق به.

أم الإسلام نظرته وسطاً بين أولئك وهؤلاء فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل وفيه الشهوة وفيه استعداد للفجور واستعداده للتقويم نفسه و لكن مهمته هي تزكية نفسه.

التوازن بين الفردية والجماعية:

وفي النظام الإسلامي تلتقي الفردية والجماعية في صورة متزنة رائعة، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات، وتتوزع فيها المغانم والتبعات بالقسطاس المستقيم.

ما قرره الإسلام لرعاية حقوق الفرد:

وقد جاء الإسلام نظاماً وسطاً عدلاً لا يجور على الفرد لحساب المجتمع ولا يظلم المجتمع من أجل الفرد، ومن هنا:

-قرر الإسلام حرمة الدم.

-وقرر حرمة العرض.

-وقرر حرمة المال.

-وقرر حرمة البيت.

-وقرر للفرد (حرية الاعتقاد).

- وقرر للفرد (حرية النقد).
- وقرر للفرد (حرية الرأي والتفكير).

ما قرره الإسلام لرعاية حقوق المجتمع:

ومع هذه الحقوق والحريات التي منحها الإسلام للفرد، فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية، بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة.

فالحياة التي صانها الإسلام للفرد، إذا اقتضى المجتمع المسلم بذلها لحمايته وجب عليه أن يقدمها راضي النفس.

حق التملك مقيد بأن يأخذ المال في حله وينفقه في محله ولايبخل به إذا طلبته الجماعة.

والحقوق كلها مقيدة برعاية أخلاق المجتمع وعقائده، فليس معنى حرية الاعتقاد إذاعة الكفر بالله ورسوله وكتابه ونشر الخلاعة والفجور.

نرى الإسلام كذلك يؤكد على مسؤولية الفرد عن الجماعة فكل فرد في المجتمع المسلم مسؤول في مجال من المجالات.

وفي معاني الجماعة في الإسلام ما عرف باسم (فروض الكفاية) فكل علم أو صناعة أو حرفة تحتاج إليها الجماعة المسلمة في دينها ودنياها، فتحقيقها فرض كفاية على المسلمين.

المسلمون مسئولون مسئولية تضامنية عن تنفيذ شريعة الإسلام وإقامة حدوده.

حتى العبادة التي هي صلة بين العبد وربه أبى الإسلام إلا أن يضفي عليها روحاً جماعية فدعا إلى صلاة الجماعة.

وفي مجال الآداب والتقاليد حث الإسلام على جملة من الآداب الاجتماعية أراد بها أن يخرج المسلم من الفردية إلى الانفتاح على المجتمع فتحية الإسلام والمصافحة عند اللقاء والتزاور وعيادة المريض وصلة الأرحام والبر باليتامى والمساكين وابن السبيل وغير ذلك من الآداب التي جعلت الشعور الجماعي جزاً لا يتجزأ من حياة المسلم.

وفي مجال الأخلاق حث الإسلام على المحبة والإخاء والإيثار وأمر بالتعاون على البر والتقوى.

الجمع بين الثبات والمرونة

من أجلى مظاهر التوازن والوسطية التي تميزت بها رسالة الإسلام، وبالتالي يتميز بها مجتمعه عن غيره: التوازن بين الثبات والتطور، أو الثبات والرونة.

ونستطيع أن نحدد مجال الثبات ومجال المرونة في شريعة الإسلام الخالدة فنقول إنه:

- الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب.
- الثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات.
- الثبات على القيم الدينية والأخلاقية، والمرونة في الشؤون الدنيوية والعلمية.

دلائل الثبات والمرونة في مصادر الإسلام وأحكامه:

إن للثبات والمرونة مظاهر ودلائل شتى، نجدها في مصادر الإسلام، وشريعته وتاريخه.

يتجلى هذا الثبات في المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع من كتاب الله وسنة رسوله.

وتتجلى المرونة في المصادر الاجتهادية التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها مثل: الإجماع والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة وأقوال الصحابة وغير ذلك من طرائق الاستنباط.

وفي أحكام الشريعة نجدها تنقسم إلى قسمين بارزين:

1- قسم يمثل الثبات والخلود.

2- وقسم يمثل المرونة والتطور.

نجد الثبات يتمثل في العقائد الأساسية الخمس: من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وفي الأركان العملية الخمسة من الشهادتين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام، وهي التي بني الإسلام عليها.

وفي المحرّمات اليقينية: من السحر وقتل النفس والزنا وأكل الربا وأكل مال اليتيم والسرقة وشرب الخمر وغيرها مما يثبت بقطعي القرآن والسنة.

وفي أمهات الفضائل من الصدق والأمانة والعفة والصبر والوفاء وغيرها من مكارم الخلاق التي اعتبرها القرآن والسنة من شعب الإيمان.

وفي شرائع الإسلام القطعية في شؤون الزواج والطلاق والميراث وغيرها من نظم الإسلام التي ثبت بنصوص قطعية الثبوت والدلالة في أمور ثابتة لا تتغير مهما تغير الزمان والمكان.

الثبات والمرونة في هدي القرآن:

ومن يتدبر القرآن الكريم، يجد في نصوصه المقدسة دلائل جمة، على هذه الخصيصة البارزة.

ومن الأمثلة على ذلك نجد:

يتمثل الثبات في قوله تعالى في وصف مجتمع المؤمنين:(وأمرهم شورى بينهم)، ولرسوله(وشاورهم في اأمر) فلا يجوز لأحد أن يلغي الشورى في حياته السياسية والاجتماعية. وتتمثل المرونة في عدم تحديد شكل معين للشورى يلتزم به الناس في كل زمان وكل مكان فيتضرر المجتمع بهذا التقييد الأبدي.

الثبات والمرونة في الهدي النبوي:

يتمثل الثبات في رفضه صلى الله عليه وسلم التهاون أو التنازل في كل ما يتصل بتبليغ الوحي أو يتعلق بكليات الدين، وقيمه، وأسسه العقائدية والأخلاقية.

فحين عرض عليه المشركون، أن يلتقوا في منتصف الطريق، فيقبل شيئا من عبادتهم ويقبلوا شيئا من عبادته، لو يعبد آلهتهم مدة، ويعبدوا إلهه مدة كان الجواب الحاسم يحمله الوحي الصادق في سورة قطعت كل المساومات وحسمت كل المفاوضات، وهي قوله تعالى) :قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين.(

نجد مرونة واسعة في مواقف السياسة و" التكتيك "ومواجهة الأعداء، بما يتطلبه الموقف المعين، من حركة ووعي وتقدير لكل الجوانب والملابسات، دون تزمت أو تشنج أو جمود.

نجده في يوم الأحزاب مثلا يأخذ برأي) سلمان (في حفر الخندق حول المدينة،

الفقه الإسلامي بين الثبات والتطور:

فالفقيه المسلم، مقيد حقا بالنصوص المحكمة الثابتة من القرآن والسنة، وهي المجزوم بثبوتها، القواطع في دلالتها،

ومع هذا التقيد الملزم، يجد الفقيه المسلم نفسه في حرية واسعة أمام منطقتين فسيحتين، من مناطق الاجتهاد وإعمال الرأي والنظر.

منطقة الفراغ التشريعي:

وهي المنطقة التي يسميها بعض الفقهاء" العفو ".

فالحدود التي قدرها الشرع، لا يجوز اعتداؤها، مثل تحديد الطلاق الذي تجوز بعده الرجعة بمرتين،

ومثل ذلك الفرائض التي أوجبها الله كالعبادات الأربع التي هي أركان الإسلام،

وكذلك المحرمات اليقينية، مثل :الشرك والسحر، والقتل.

وما عدا هذه الحدود والفرائض والمحرمات، فهي أمور مسكوت عنها، متروكة للاجتهاد، رحمة بالأمة، وتيسيرا وتوسعة عليها،

أما كيف تملأ الأمة هذا" الفراغ التشريعي" فهناك القياس بقيوده وشروطه، هناك الاستحسان، وهناك الاستصلاح أو اعتبار المصلحة المرسلة، هناك اعتبار العرف بقيوده وشروطه.

منطقة النصوص المحتملة:

والثانية: منطقة النصوص المتشابهات، التي اقتضت حكمة الشارع أن تجعلها هكذا محتملات، تتسع لأكثر من فهم، وأكثر من رأي، ما بين موسع ومضيق، وما بين قياسي وظاهري، وما بين متشدد ومترخص، وما بين واقعي ومفترض.

وفي كل هذا فسحة وسعة لمن أراد الموازنة والترجيح وأخذ أقرب الآراء إلى الصواب، وأولاها بتحقيق مقاصد الشرع.

تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد:

ومن هنا لم يجد المحققون من فقهاء المسلمين، في مختلف العصور أي غضاضة أو حرج في إعلان وجوب تغير الفتوى، بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال.

ومن أمثلة ما تغيرت فيه الفتوى والحكم بتغير البيئات، والأزمان، والأحوال:

ما وقع من عمر بن عبد العزيز ــ رضي الله عنه ــ إذ كان واليا على المدينة، فكان يحكم للمدعى بدعواه، إذا جاء بشاهد واحد، وحلف اليمين، فيعد يمين المدعي قائمة مقام الشاهد الثاني فلما ولى الخلافة، وأقام في عاصمة الدولة بالشام لم يحكم إلا بشهادة رجلين، أو رجل وامرأتين فسئل في ذلك فقال: لقد وجدنا أهل الشام على غير ما عليه أهل المدينة.

الباب الرابع
أهداف الإسلام

بناء الإنسان الصالح

أول ما يهدف إليه الإسلام هو بناء" الإنسان الصالح" الجدير بأن يكون خليفة الله في الأرض، والذي كرمه الله أفضل تكريم،

إنسان إيمان وعقيدة:

وإنسان الإسلام هو ــ قبل أي اعتبار ــ إنسان إيمان وعقيدة، قد اتضحت فكرته عن نفسه، وعن العالم من حوله، فهو ليس نباتا) شيطانيا) كنبات البرية، ظهر وحده من غير زارع زرعه، ولا الكون من حوله برز وحده من غير خالق خلقه ومدبر دبره، بل هو يؤمن أن له ربا خلقه فسواه فعدله، وعلمه البيان، ومنحه العقل والإرادة، وأرسل إليه الرسل، وأنزل له الكتب، وأقام عليه الحجة، وعرفه الغاية، والطريق.

كما أن هذا العالم البديع وراءه خالق عظيم، خلق كل شيء فقدره تقديرا، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولكن الذي خلقه سيفنيه، ويبدل به عالما آخر، هو عالم الخلود، فيه توفى كل نفس ما كسبت، وتجزى بما عملت، وهم لا يظلمون.

إنسان نسك وعبادة:

وإنسان الإسلام كذلك، إنسان نسك وعبادة، فهو يعلم أن الكون من حوله خلق له، أما هو فخلق لله وحده، وبهذا أدرك غاية حياته، وسر وجوده.

فعبادة الله وحده لا شريك له، هي غاية غاياته، فلها خلق، ومن أجلها سخر له ما في السموات وما في الأرض.

ومن هنا يحب الإنسان المسلم متعبدا لله تعالى، مؤتمرا بأمره، منتهيا عما نهى عنه، جاعلا خشيته وتقواه نصب عينه.

فالمسلم يذكر ربه في كل حين، وعلى أية حال، في أكله وشربه، وعند نومه وعند يقظته، وفي إصباحه وإمسائه، ولدى مدخله ومخرجه.

على أن المسلم يستطيع أن يجعل حياته كلها عبادة إذا التزم منهج الله، وقصد بعمله ــ حتى الدنيوي ــ وجه الله تعالى.

إنسان خلق وفضيلة:

إنسان خلق وفضيلة، تتجسم فيه الطهارة بكل معانيها، وتتمثل فيه فضائل العدل والرحمة والإيثار، قد اتخذ من رسول الله (أسوة حسنة) وقد بعثه الله (ليتمم مكارم الأخلاق(، ووصفه بأنه (على خلق عظيم)، فهو يقتبس من نوره ويهتدي بهداه، ويتخلق بخلقه، ليكون أقرب إليه يوم القيامة.

لقد علمنا الإسلام أن الخلق والفضيلة من لوازم العقيدة، وتمام الإيمان، كما أنهما ثمرة لازمة للعبادة الحقة، وإذا لم تثمر العبادة في الخلق والسلوك دل ذلك على أنها عبادة مدخولة.

إنسان شريعة ومنهج:

والمسلم ــ فضلا عن التزامه بالخلق والفضيلة ــ هو ملتزم كذلك بمنهج رباني، بشريعة محكمة، مفروضة عليه من ربه، أحلت له الحلال، وحرمت عليه الحرام، وحددت له الواجبات، وبينت له الحقوق، وفصلت له كل ما يحتاج إليه، فلم تدعه هملا، ولم تتركه نهبا للفلسفات والأنظمة البشرية المتضاربة، تميل به عن يمين وشمال، بل رسمت له (الصراط المستقيم) وألزمته بالسير فيه، مراعية ما يعرض عليه من ضرورات، فأباحت له بعض ما حظرت عليه بقدر ما توجب الضرورة وحجمها وزمنها، من غير بغي ولا عدوان، كما قال تعالى في شأن الأطعمة المحرمة.

إنسان دعوة وجهاد:

والإنسان المسلم فوق ذلك: إنسان دعوة وجهاد، أعني أنه لا يقف عند صلاح نفسه، بل يبذل جهده لإصلاح غيره، ودعوة الآخرين إلى ما هداه الله إليه.

فالمسلم بطبيعته داعية، لأنه يوقن أن رسالته للعالم كله، وللزمن كله، وللحياة كلها، فهو يسعى لمد شعاعها، وتعميم رحمتها على العالم: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

وهكذا قال الصحابي ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس: إن الله (ابتعثنا) لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ثم يمتد بدعوته في المجتمع من حوله، داعيا إلى الخير، محذرا من الشر آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، فلا يجوز له أن يقف المتفرج، أو غير المبالي، من شيوع المنكر، أو ضياع المعروف، بل لا بد أن يتقدم ليغير المنكر إن استطاع بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان.

وهذا هو الجهاد الداخلي الذي اعتبره النبي العظيم في القمة من أنواع الجهاد حين سئل عن أفضل الجهاد.

ولا يقف المسلم عند حد الجهاد الداخلي بالدعوة والأمر والنهي، بل هو يجاهد بلسانه، ونفسه وماله، لتصل كلمة الله إلى الناس كافة، كما جاء في الحديث: "جاهدوا المشركين بأيديكم، وألسنتكم وأموالكم."

إنسان عقل وعلم:

وإذا كان إنسان الإسلام إنسان إيمان وعقيدة، فهو ـ في الوقت نفسه ـ إنسان عقل وعلم، إذ لا تعارض في الإسلام بين الإيمان والعقل، ولا بين الدين والعلم.

الإيمان الإسلامي لا يقول للمسلم ما تقوله أديان أخرى: اعتقد وأنت أعمى! بل يدعوه أن يكون على (بينة من ربه) وأن يؤسس عقيدته على (اليقين) لا على (الظن) وأن يعتمد على (البرهان) لا على التقليد.

وإلى جوار ذلك سن حملة شديدة العنف على التقليد الأعمى للآخرين، الذي يجعل الإنسان يلغي عقله، ويفكر بعقل غيره، سواء كان هذا الغير يتمثل في الآباء والأجداد المعظمين عنده، أو في السادة والكبراء ذوي النفوذ والسلطان الذي قد

يبلغ درجة التأله في الأرض، أو في جمهور الناس وغوغائهم الذين اختلت موازينهم.

والعقل عند المسلمين ليس نقيضا للوحي، بل هو الدليل على صدقه، ولهذا يعتبر المحققون من علماء المسلمين: أن العقل أساس النقل. ولكن للعقل مجالا لا ينبغي أن يتجاوزه، وإلا تاه في أودية الضلال، وهو مجال هذه المخلوقات. وأما ذات الله تعالى وما يتعلق بجلال شأنه فليس للعقل سلطان عليه، والأولى له التسليم للوحي فيه، والتلقي عنه، بعد أن يثبت هو صحته، فالعقل هو الذي يقيم الدليل على صدق الوحي.

والقرآن يذم الكفار، ويجعلهم حطب جهنم لتعطيلهم هذه الأدوات: (لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل).

وينهى القرآن عن اتباع ما ليس للإنسان دليل عليه: (ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا).

إنسان عمارة وإنتاج:

والإنسان المسلم ليس راهبا في دير، بل هو إنسان عمل وإنتاج للحياة، يعطيها كما يأخذ منها، ويعد عمارتها هدفا من أهداف خلق الإنسان واستخلافه في الأرض.

وقد جعل الله الأرض للإنسان مهادا وفراشا، وجعل له فيها مستقرا ومتاعا إلى حين وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وأودع فيها أسباب المعايش التي تحقق بقاء هذا النوع إلى ما شاء الله.

ليس هؤلاء العباد المخلصون رهبانا ولا دراويش، بل هم رجال أعمال وأموال، ولكن لم تلههم دنياهم عن آخرتهم، ولم يشغلهم حظ أنفسهم عن حق ربهم.

والمسلم مطالب أن يعمل لدنياه، بما تيسر له من فروع الإنتاج، زراعة أو صناعة أو تجارة، أو رعيا أو صيدا، أو استخراجا لما في الأرض، أو غير ذلك، مما تحتاج إليه الجماعة.

بناء الأسرة الصالحة

كما هدف الإسلام إلى بناء الأسرة الصالحة، التي هي الخلية الأولى والضرورية لقيام المجتمع الصالح. ولا مكان لقيام أسرة صالحة، أو أسرة حقيقية بغير الزواج، كما شرعه الله تعالى.

أفكار منحرفة عارضت الزواج:

عرفت الإنسانية في القديم والحديث أفكارا ومذاهب تعارض فكرة الزواج.

ففي فارس ظهرت قبل الإسلام فلسفة" ماني" الذي يزعم أن العالم ملئ بالشر، ويجب فناؤه، ومنع الزواج أقرب وسيلة إلى المسارعة بفناء العالم.

الإسلام يرغب في الزواج:

أما الإسلام فقد رفض تلك الأفكار المنحرفة، والمذاهب المتشائمة، ولم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم الرهبانية في الإسلام، ونهى عن التبتل (الانقطاع عن الزواج للعبادة) ووجه نداءه إلى الشباب يحثهم على الزواج.

مقاصد الإسلام من الزواج:

أ - سنة الله في هذا الكون أن لا شيء فيه يستطيع أن يؤدي مهمته وحده، بل خلقه الله محتاجا إلى الاتصال بغيره من نوعه ليكمل به ويكمل

ب - وبالزواج يحدث النسل، الذي يمتد به وجود الإنسان، فيطول عمره، ويتصل عمله، بذريته الصالحة من بعده.

جـ- تمام الدين للمرء المسلم، به يغض بصره، ويعف نفسه، ويجد متنفسا لشهوته في الحلال، فلا يفكر في الحرام.

د - من مقومات السعادة الدنيوية، التي لا يكرهها الإسلام، بل يحبها لأتباعه، ويوفرها لأبنا.

هـ - والزواج هو الطريق الوحيد لتكوين الأسرة التي هي نواة المجتمع، وأساس بنائه.

و- وبالزواج تنمو الصلات الاجتماعية، فيضم الإنسان عشيرة إلى عشيرته، وأسرة إلى أسرته.

ز- وبالزواج تتاح الفرصة الملائمة التي تكتمل بها شخصية الرجل بتحمله مسئوليته زوجا وأبا، وتكتمل شخصية المرأة بتحمل مسئوليتها زوجة وأما.

ح - وبالزواج يتفرغ الرجل لإتقان أعماله في خارج البيت، مطمئنا إلى أن في بيته من يدبر أمره، ويحفظ ماله، ويرعى أولاده.

بناء المجتمع الصالح

ويهدف الإسلام إلى تكوين المجتمع الصالح.

والمجتمع الصالح هو الذي يرتبط أفراده وأسره بقيم الإسلام العليا، ومبادئه المثلى، ويجعلها رسالة حياته، ومحور وجوده.

وأهم القيم الإسلامية في هذا المقام هي:

أ – التجمع على العقيدة، قد يكون أبناء هذا المجتمع من أجناس مختلفة، أو ألوان مختلفة، أو أوطان مختلفة، أو ألسنة مختلفة، أو طبقات مختلفة، ولكن هذا الاختلاف كله يذوب وينصهر أمام وحدة العقيدة.

ب – احترام العمل الصالح" بل تقديسه، سواء كانت صيغته دينية كالصلاة والصيام، أم دنيوية، كالسعي في طلب الرزق، وعمارة الأرض.

ج – والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فليس يكفي ــ في منطق الإسلام ــ أن يكون المرء صالحا في خاصة نفسه، غافلا عن فساد غيره، بل الصالح عنده حقا، من أصلح نفسه، وحاول إصلاح غيره، ولو بالدعوة والأمر والنهي.

د – والجهاد في سبيل الله ــ حماية للحق، وتثبيتا للخير، وتأمينا للدعوة، ومنعا للفتنة، وصدا للمغيرين.

هــ– وتثبيت الفضائل الخلقية كلها في شتى جوانب الحياة، ونشرها وحمايتها، من العدل، والإحسان.

الإخاء والمحبة:

و– والإخاء والمحبة من دعائم المجتمع المسلم، وهذا مقتضى الإيمان الذي يربط بين أهله برباط العقيدة الوثيق: (إنما المؤمنون إخوة.(

التعاطف والتراحم:

ز– التعاطف والتراحم، وهذا من ثمرات الإخاء الحق، وهو ما صوره الحديث الشريف أبلغ تصوير حين قال: "ترى المسلمين في توادهم وتعاطفهم

وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء، بالحمى والسهر."

وأوجب ما يكون العطف والرحمة: للضعفاء من الناس.

التساند والتعاون:

ح- التساند والتعاون، وهو المظهر العملي للإخاء والتراحم، والتعاون الإسلامي مجاله البر والتقوى وليس الإثم والعدوان،

التكافل والتضامن:

ط- التكافل والتضامن: بحيث ينهض القوي بالضعيف، ويعود الغني على الفقير، ولا يضيع عاجز ولا مسكين في هذا المجتمع،

التواصي والتناصح:

ي- التواصي والتناصح، وهذا من التكافل الأدبي، الذي يجعل كل مسلم مسئولا عمن حوله من أبناء المجتمع، ينصح لهم وينصحون له،

التطهر والترقي:

ك- التطهر والترقي، فالمجتمع المسلم مجتمع نظيف يربي أبناءه على الطهارة والعفة والإحصان، ويحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن،

العدالة:

ل- العدالة، وتشمل عدالة التعامل بين الناس في شئون الحياة، فإن العدل فريضة، والظلم حرام،

مجتمع متقدم:

م- مجتمع متقدم، وليس مجتمعا متخلفا بحال.

وهذا أمر يحتاج إلى تجلية وتوضيح، فإن كلمة "تقدم" كلمة مطاطة، قابلة لأكثر من تفسير،

والتقدم في معناه البسيط: أن يكون الإنسان قدام غيره، أي في جهة الإمام، ويقابله: التخلف، وهو أن يكون الإنسان في الخلف.

والأمامية والخلفية من الأمور النسبية، فقد تعتبر في الإمام بالنسبة لشخص وراءك، وتعتبر في الخلف بالنسبة لشخص أمامك، وقد تكون أمام مجموعة كلها من المتخلفين، فأنت حينئذ أسبق المتخلفين، كالسابق بين العرجان!

ارتباط التقدم بأهداف الحياة:

ولكن التقدم قد يقاس بالنسبة لهدف يريد الإنسان أن يبلغه، فكل حركة في اتجاهه تقرب إليه، تعد تقدما، بخلاف أي حركة في عكس الاتجاه الموصل إلى الهدف، لأنها حركة إلى الوراء حتما.

الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية:

إن الإسلام يجعل لحياة البشر على الأرض أهدافا أساسية، وأبرزها كما جاء بها القرآن العظيم ثلاثة:

1- العبادة لله، وإليها يشير قوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).

2- الخلافة لله في الأرض، وإليها يشير قوله: (إني جاعل في الأرض خليفة)، وقوله: (ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون).

3- والعمارة للأرض، وإليها الإشارة بقوله: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها).

تقدم متكامل:

إن التقدم الذي يطلبه الإسلام للحياة :تقدم متكامل، روحي ومادي، أخلاقي وعمراني، دنيوي وأخروي، علمي وإيماني، ولا يجد أي تعارض بين هذه المتقابلات، بل هو يجمع بينها في توازن واتساق.

بناء الأمة الصالحة

من أهداف الإسلام الأساسية: تكوين (أمة) متميزة، تطبق رسالته، وتؤسس حياتها على عقيدته وشريعته ومثله، وتربي أجيالها على هداه، وتحمل رسالته إلى العالم كله.

لقد أراد الإسلام أن يبني "أمة" على أساس العقيدة والفكرة، وليس على أي أساس مادي أو أرضي مما يبني عليه البشر أممهم، من عنصر أو لون أو لغة أو أرض، مما ليس للإنسان فيه إرادة واختيار. بل هو قدر مفروض عليه، فلم يختر الإنسان جنسه ولا لونه ولا لغته ولا أرضه التي ولد فيها. إنما ورث هذا كله دون أن يكون له رأي فيه.

أما العقيدة.. فالأصل فيها أنها من اختيار الإنسان، وإيمان المقلد مشكوك في قبوله، بل مرفوض عند المحققين من علماء المسلمين.

أوصاف الأمة الأساسية في القرآن:

أبرز ما يميز عن غيرها من الأمم أوصاف أربعة ذكرها القرآن:

الربانية:

الأول: الربانية ــ ربانية المصدر، وربانية الوجهة. فهي أمة أنشأها وحي الله تعالى، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه، حتى اكتمل لها دينها، وتمت به نعمة الله عليها

الوسطية:

والثاني: الوسطية.. التي تؤهل الأمة للشهادة على الناس، وتبوئها مكان الأستاذية للبشرية .

وهي وسطية شاملة جامعة: وسطية في الاعتقاد والتصور، ووسطية في الشعائر والتعبد، ووسطية في الأخلاق والسلوك، ووسطية في النظم والتشريع، ووسطية في الأفكار والمشاعر.

الدعوة:

والوصف الثالث: الدعوة. فهي أمة دعوة ورسالة، ليست أمة منكفئة على نفسها، تحتكر الحق والخير والهداية لذاتها، ولا تعمل على نشرها في الناس. بل الدعوة فريضة عليها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله أساس تفضيلها على كل الأمم

الوحدة:

والوصف الرابع: الوحدة. فالأمة التي يريدها الإسلام أمة واحدة، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات، فقد صهرها الإسلام جميعا في بوتقته، وأذاب الفوارق بينها، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

وكيف لا تكون هذه الأمة واحدة، وقد وحد الله عقيدتها وشريعتها، وحد غايتها، ووحد منهاجها.

الإيمان بالأمة لا ينفي خصوصيات الأقوام:

ومن المفيد هنا أن ننبه على قضية ذات شأن، وهي: أن الإيمان بـــ "الأمة" المؤسسة على عقيدة الإسلام، وأخوة الإيمان، والتي تضم جميع المسلمين في رحابها حيث كانوا ــ لا ينفي أن هناك خصوصيات معينة لكل قوم، يعتزون بها، ويحافظون عليها، ولا يفرطون فيها، ولا مانع من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عرقية تقاوم أخوة الإسلام، أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدد وحدة دولة الإسلام.

ولقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها، تحت القيادة الإسلامية العامة، ليكون ذلك مصدرا إضافيا لحماسهم وإقدامهم، حتى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرهم.

بناء الدولة الصالحة

وكما حرص الإسلام على إنشاء الأمة الصالحة المصلحة، ذات الرسالة الربانية الإنسانية الأخلاقية العالمية، هدف كذلك إلى أن تحكم هذه الأمة دولة صالحة، تحقق أهدافها، وتنمي خصائصها، وتحافظ على رسالتها، وتعمل على غرسها في الداخل، ونشرها في الخارج.

ولا بد من التأكيد على شمول الإسلام، وإبراز هذا الجانب الحي من أحكامه وتعاليمه: جانب الدولة، وتنظيمها وتوجيهها بأحكامه وآدابه، وإعلان أن ذلك جزء لا يتجزأ من نظام الإسلام.

الدليل من نصوص الإسلام:

ولم يكن هذا ابتكارا من الحركة الإسلامية ومؤسسها ودعاتها. بل هو ما تنطق به نصوص الإسلام القاطعة، ووقائع تاريخه الثابتة، وطبيعة دعوته الشاملة.

أما نصوص الإسلام فحسبنا منها آيتان من سورة النساء: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعا بصيرا، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول).

فالخطاب في الآية للولاة والحكام: أن يرعوا الأمانات ويحكموا بالعدل، فإن إضاعة الأمانة والعدل نذير بهلاك الأمة وخراب الديار. ففي الصحيح: "إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة". قيل: وكيف إضاعتها؟ قال" :إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة."

والخطاب في الآية الثانية للرعية المؤمنين: أن يطيعوا "أولى الأمر" بشرط أن يكونوا "منهم" وجعل هذه الطاعة بعد طاعة الله وطاعة الرسول، وأمر عند التنازع برد الخلاف إلى الله ورسوله، أي إلى الكتاب والسنة. وهذا يفترض أن يكون للمسلمين دولة تهيمن وتطاع، وإلا لكان هذا الأمر عبثا.

وإذا ذهبنا إلى السنة، رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية". ولا ريب أن من المحرم على المسلم أن يبايع أي حاكم لا يلتزم بالإسلام. فالبيعة التي تنجيه من الإثم أن يبايع من يحكم بما أنزل الله... فإذا لم يوجد ذلك فالمسلمون آثمون حتى يتحقق الحكم الإسلامي، وتتحقق به البيعة المطلوبة. ولا ينجي المسلم من هذا الإثم إلا أمران: الإنكار ــ ولو بالقلب ــ على هذا الوضع المنحرف المخالف لشريعة الإسلام..

والسعي الدائب لاستئناف حياة إسلامية قويمة، يوجهها حكم إسلامي صحيح.

ولهذا رأينا شئون الأمة والخلافة تذكر في كتب العقائد وأصول الدين، كما رأيناها تذكر في كتب الفقه، كما رأينا كتبا خاصة بشئون الدولة الدستورية والإدارية والمالية والسياسية.

الدليل من تاريخ الإسلام:

أما تاريخ الإسلام.. فينبئنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سعى بكل ما استطاع من قوة وفكر ــ مؤيدا بهداية الوحي ــ إلى إقامة دولة للإسلام، ووطن لدعوته، خالص لأهله، ليس لأحد عليهم فيها سلطان، إلا سلطان الشريعة. ولهذا كان يعرض نفسه على القبائل ليؤمنوا به ويمنعوه ويحموا دعوته، حتى وفق الله "الأنصار" من الأوس والخزرج إلى الإيمان برسالته، فلما انتشر فيهم الإسلام جاء وفد منهم إلى موسم الحج مكون من 73 رجلا وامرأتين، فبايعوه ــ صلى الله عليه وسلم ــ على أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، وعلى السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... الخ... فبايعوه على ذلك... وكانت الهجرة إلى المدينة ليست إلا سعيا لإقامة المجتمع المسلم المتميز، تشرف عليه دولة مسلمة متميزة.

وعند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما شغل أصحابه رضي الله عنهم، أن يختاروا "إماما" لهم، حتى إنهم قدموا ذلك على دفنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فبادروا إلى بيعة أبي بكر، وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كل عصر من بعد ذلك، وبهذا الإجماع التاريخي ابتداء من الصحابة والتابعين ــ مع

ما ذكرنا من النصوص ــ استدل علماء الإسلام على وجوب نصب الإمام الذي هو رمز الدولة الإسلامية وعنوانها.

الدليل من طبيعة الإسلام:

أما طبيعة الإسلام ورسالته، فذلك أنه دين عام، وشريعة شاملة، وشريعة هذه طبيعتها لا بد أن تتغلغل في كافة نواحي الحياة، ولا يتصور أن تهمل شأن الدولة، وتدعها للمتحللين والملحدين، أو الفسقة، يديرونها تبعا للهوى.

كما إن هذا الدين يدعو إلى التنظيم وتحديد المسئولية، ويكره الاضطراب والفوضى في كل شيء، حتى رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم يأمرنا في الصلاة أن نسوي الصفوف وأن يؤمنا أعلمنا، وفي السفر يقول :أمروا أحدكم.

ثم إن طبيعة الإسلام باعتباره منهجا يريد أن يسود ويقود ويوجه الحياة، ويحكم المجتمع، ويضبط سير البشر وفق أوامر الله، لا يظن به أن يكتفي بالخطابة والتذكير والموعظة الحسنة، ولا أن يدع أحكامه ووصاياه وتعليماته في شتى المجالات إلى ضمائر الأفراد وحدها، فإذا سقمت هذه الضمائر أو ماتت، سقمت معها وماتت تلك الأحكام.

حاجتنا إلى دولة تحتضن الإسلام:

هذه الدولة المنشودة ضرورة إسلامية، وهي أيضا ضرورة إنسانية، لأنها ستقدم للبشرية المثل الحي، لاجتماع الدين والدنيا، وامتزاج المادة بالروح، والتوفيق بين الرقي الحضاري، والسمو الأخلاقي، وتكون هي اللبنة الأولى لقيام دولة الإسلام الكبرى، التي توحد الأمة المسلمة تحت راية القرآن، وفي ظل خلافة الإسلام.

الدعوة إلى خير الإنسانية

لا يفهم من دعوة الإسلام إلى إقامة) أمة متميزة) بأهدافها وقيمها ومناهجها، ذات رسالة متميزة، بمقوماتها ومثلها وخصائصها: أن الإسلام دين منغلق على نفسه، وأن أمته تعيش لنفسها، متقوقعة على ذاتها، لا تهتم بغيرها من الناس، صلحوا أو فسدوا، اهتدوا أو ضلوا، ارتقوا أو هبطوا.

كلا، فالإسلام منذ فجر دعوته كان رسالة عالمية، ودعوة للناس كافة، ورحمة لكل عباد الله، عربا كانوا أو عجما، ولكل بلاد الله، شرقا كانت أم غربا، وإلى جميع الألوان بيضا كانوا أم سودا.

في القرآن المكي نقرأ آيات كريمة من كتاب الله تقرر بوضوح عالمية الدعوة: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

وأمة الإسلام مكلفة بحمل هذه الرسالة العالمية إلى العالم، فلا يجوز لها أن تحتكر الخير والنور لنفسها، بل عليها بعد أن اهتدت بنور الله أن تهدي الآخرين إليه، وبعد أن صلحت بالإيمان والعمل الصالح أن تصلح الأمم وتدعوها إلى الخير الذي أكرمها الله به.

وهذا ما فقهه الصحابي الكريم ربعي بن عامر ــ رضي الله عنه ــ حين سأله رستم قائد جيوش الفرس في معركة القادسية: من أنتم؟ فقال له في عزة مؤمنة، وفي إيمان عزيز: نحن قوم ابتعثنا الله، لنخرج من نشاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا، إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

1- تحرير الإنسان من العبودية للإنسان:

أول هذه المبادئ: أن الإسلام ــ بدعوته إلى التوحيد الخالص، ومقاومته للشرك بكل ألوانه ومستوياته ــ حرر الإنسان من العبودية للإنسان، كما حرره من العبودية للأشياء، أو للأوهام، أو للذات.

2- الأخوة والمساواة الإنسانية:

وهذه الأخوة مبنية على أمرين:

الأول: أن الناس جميعا، بمقتضى دعوة التوحيد، عبيد لرب واحد،

والثاني: أنهم جميعا أبناء لأب واحد.

3- العدل لجميع الناس:

ومما دعا إليه الإسلام لخير الإنسانية :إقامة العدل بين الناس كل الناس، فليس عدلا للعرب وحدهم، إنما هو عدل للناس كلهم جميعا.

4- السلام العالمي:

ومما دعا إليه الإسلام كذلك: السلام بين البشر، بدل الحروب والنزاع.

.5التسامح مع غير المسلمين:

ومن المبادئ والقيم التي دعا إليها الإسلام هنا: التسامح مع غير المسلمين، والتعامل معهم بروح إنسانية عالية، لا تتعصب ولا تحقد على من خالفها.

أعلى درجات التسامح عند المسلمين وحدهم:

ثم إن التسامح الديني والفكري له درجات ومراتب:

فالدرجة الدنيا من التسامح: أن تدع لمخالفك حرية دينه وعقيدته، ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك أو مذهبك.

والدرجة الوسطى من التسامح: أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة ومذهب، ثم لا تضيق عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو فعل أمر يعتقد حرمته.

روح التسامح عند المسلمين:

وروح السماحة التي تبدو في حسن المعاشرة، ولطف المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان، وهي الأمور التي تحتاج إليها الحياة اليومية، ولا يغني فيها قانون ولا قضاء. وهذه روح لا تكاد توجد في غير المجتمع الإسلامي.

تتجلى هذه السماحة في مثل قول القرآن في شأن الوالدين المشركين اللذين يحاولان إخراج ابنهما من التوحيد إلى الشرك) :وصاحبهما في الدنيا معروفا.(

الأساس الفكري لتسامح المسلمين:

1- اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان، أيا كان دينه أو جنسه أو لونه.

2- اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى.

3-إن المسلم ليس مكلفا أن يحاسب الكافرين على كفرهم، أو يعاقب الضالين على ضلالهم، فهذا ليس إليه، وليس موعده هذه الدنيا، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب، وجزاؤهم متروك إليه في يوم الدين،

4- إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل، ويحب القسط، ويدعو إلى مكارم الأخلاق، ولو مع المشركين، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين، ولو كان الظلم من مسلم لكافر.